نقد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر
أنور عبد الملك وحسن حنفي نموذجاً

د. أحمد حسن أنور(*)

Ahmed5658103@yahoo.com

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تناول إشكالية مركزية في الفكر العربي المعاصر ألا وهي إشكالية نقد الاستشراق، وذلك من خلال دراستها عند أنور عبد الملك وحسن حنفي في محاولة لاكتشاف منهج وأيديولوجية ومضمون الخطاب النقدي عند كلٍ منهما. وستعتمد هذه الدراسة منهجًا قائمًا على توظيف جهاز المفاهيم الفلسفية الواردة في كتاب "**فلسفة المرآة**" للمفكر المصري الراحل محمود رجب (ت: ٢٠٠٢م) في محاولة استخراج أثر فعل التمرئي والتأمل الانعكاسي على موضوع الدراسة. وقد جاءت عناصر الدراسة على النحو التالي: **أولاً- نقد الاستشراق عند أنور عبد الملك**، ليشمل: (المصطلحات المركزية الواردة في مقالة الاستشراق في أزمة، ثم الصور المرآوية لأنماط الاستشراق ومستوياته). **ثانيًا: من نقد الاستشراق إلى علم الاستغراب عند حسن حنفي**، ليشمل: (نقد الاستشراق، ثم البنية الشعورية ومحاولة تأسيس علم الاستغراب)، ثم **خاتمة الدراسة** وأبرز نتائجها.

الكلمات المفتاحية:

الاستشراق- نقد الاستشراق- الاستغراب- فلسفة المرآة- حسن حنفي- أنور عبد الملك.

---

* **مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف، بكلية الآداب، جامعة بورسعيد.**

باحث زائر بكلية الآداب، جامعة كومنيوس، براتسلافا، سلوفاكيا.

يأتي هذا البحث ضمن بحوث المهمة العلمية رقم (ID: 27200)، البرنامج الوطني للمنح البحثية بالجمهورية السلوفاكية (بالاتحاد الأوروبي) في الفترة من ٢٠١٩/١١/٥م حتى ٢٠٢٠/٨/٣٠م.

National Scholarship Programme of the Slovak Republic (SAIA) ID: 27200

تمهيد:

أخذت قضية نقد الاستشراق[١] مكانة مركزية في الكتابات العربية عامة، والموصوفة اصطلاحيًا بالفكر العربي المعاصر خاصة[٢]. فالتيارات المركزية في الفكر العربي الحديث: (الديني، الليبرالي، اليساري) ركزت على نقد الاستشراق بطرق واتجاهات متعددة، حتى بات من الصعب أن تخلو كتابات مفكر من مفكري العرب من موقف محدد تجاه الاستشراق بأبعاده المتعددة والمختلفة ولعل أبرزها: (العلاقة بين الشرق والغرب- رؤية الغرب للشرق- رؤية الشرق لرؤية الغرب للشرق- نقد رؤية الغرب للشرق). ولو حاولنا البحث عن جذور اللحظة التاريخية التي بدأ فيها التركيز على الاستشراق من ناحية، ثم نقده من ناحية أخرى في الفكر العربي الحديث والمعاصر فربما يكون ذلك عقب أحداث الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م[٣]، وما تلاها من حركات استعمارية متلاحقة لأغلب البلدان العربية في القرنيين الماضيين. إلا أنه من الملاحظ أن هناك **عوامل عامة** أخرى قد أدت إلى التركيز على تناول الاستشراق في الفكر العربي المعاصر، مثل:

- البعثات العلمية التي تم إرسالها إلى أوروبا.
- دور الأساتذة الأوروبيين في الجامعة المصرية في القرن الماضي.
- حركة الترجمة من اللغات الأوروبية المختلفة إلى اللغة العربية.
- الثورات وحركات التحرر التي حدثت في البلدان العربية منذ عام ١٩٥٢م.

- اتساع نفوذ الاتحاد السوفيتي في بعض البلدان العربية في القرن الماضي.
- انتشار الأفكار الشيوعية والاشتراكية في القرن الماضي.
- ظهور ما سمي بـ "**الصحوة الإسلامية**" في بعض البلدان الإسلامية.
- الهجرة من الشرق إلى الغرب وخاصة لأساتذة الجامعات وبعض مفكري العرب.

وعوامل أخرى عديدة جعلت من الاستشراق قضية مركزية في الثقافة العربية. ومن اللافت للنظر أن أي عامل من العوامل المشار إليها- سلفا- بمجرد اكتشاف وجوده لدى أي مفكر عربي فسيؤدي ذلك إلى الارتباط بالنتائج بشكل واضح، حتى أصبحت العلاقة بين أي عامل من العوامل السابقة والنتيجة (النتائج) علاقة شبه تلازمية تشبه العلاقة الارتباطية بين العلة والمعلول، وربما هذا ما يفسر أسباب التباين والتضارب والتناقض تجاه قضية نقد الاستشراق من مفكر عربي لآخر.

وإذا كنا قد أشرنا إلى بعض "**العوامل العامة**" التي سيظهر أثر عامل أو أكثر منها على مفكر عربي ما، فلا يجب أن ننسى ما يمكن تسميته بـ: "**العوامل الذاتية**" التي قد تشكل اتجاهه وطريقة تناوله للموضوع في إطار نسقه الفكري الكلي.

فروض الدراسة وأهدافها:

ربما كانت بداية نقد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر من طرف التيار العلماني أو قل (من طرف تيار غير محدد بمرجعية دينية إسلامية)

مع المفكر المصري: **أنور عبد الملك (١٩٢٤- ٢٠١٢م)** وتحديدًا بمقالته المعنونة بـ **(الاستشراق في أزمة**- L'Orientalisme en crise) والمنشورة باللغة الفرنسية في مجلة ديوجين (Diogéne) عام ١٩٦٣م، تلك المقالة التي تناول فيها نقد الاستشراق من حيث مفاهيمه ومناهجه وأدواته، والداعي فيها إلى ضرورة تقييم ونقد رؤية الغرب للشرق، خاصة أن الشعوب الشرقية التي كانت موضوع للدرس والبحث الاستشراقي أصبحت وتحولت- على حد تعبيره- من موضوعًا للدراسة إلى: "**ذوات وأسياد**"(٤).

تلك الفرضية التي طرحها أنور عبد الملك راحت تتطور شيئًا فشيئًا مع عدة كُتاب آخرين، فظهرت في أوضح صورتها في كتاب: "**الاستشراق**" المنشور في طبعته الأولى عام ١٩٧٨م للكاتب الفلسطيني الأصل **إدوارد سعيد (ت: ٢٠٠٣م)**، حيث ذهب سعيد إلى أن الاستشراق "أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى [الشرق]، وبين ما يسمى في معظم الأحيان [الغرب]" من ناحية، ومن ناحية أخرى يعرف الاستشراق "بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق.... والسيطرة عليه: وباختصار بصفة الاستشراق أسلوبًا غربيًا للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه.."(٥).

إلا أن الفرضية السابقة ستثير ردود أفعال معكوسة- بالمعني الحرفي للكلمة- عند المفكر السوري **صادق جلال العظم** الصديق الصدوق لإدوارد سعيد. ففي مقالة بعنوان: "**الاستشراق والاستشراق معكوسًا**"(٦) سيتبنى صادق العظم ضرب عصفورين بحجر واحد ونعني نقد الاستشراق من ناحية، ونقد فرضية أنور عبد الملك وإدوارد سعيد من ناحية أخرى وذلك عن

طريق ميكانيزمات جديدة أسماها **صادق العظم** بـ: "**الاستشراق المعكوس**" و"**ميتافزيقا الاستشراق**".

وبالرغم من أن مقالة "**الاستشراق والاستشراق معكوسًا**" قد كتبت وطبعت قبل قيام المفكر المصري **حسن حنفي** بكتابة مؤلفاته المتعددة التي أظهرت فرضيته تجاه نقد الاستشراق، إلا أن الانتقادات من خلال مفاهيم ومصطلحات ومقالة **صادق العظم** ستنطبق أكثر على مؤلفات **حسن حنفي** في هذا المجال، وكأن فرضيات ومفاهيم **حسن حنفي** ما هي إلا عكس العكس (صورة معكوسه للصورة العكسية) الواردة عند **صادق العظم**.

وبالانتقال إلى فرضيات نقد الاستشراق عند **حسن حنفي** فإنها ستحدد من خلال العلاقة بين "**الذات**" و"**الخارج**"، "**المركز**" و"**الأطراف/ الهامش**"، "**التحرر**" و"**الهيمنة**"، حيث يفترض حسن حنفي أن علاقة الاستشراق بالثقافة العربية ليست إلا علاقة هيمنة من طرف المركز على الهامش، وبالتالي سيكون الحل لهذه الإشكالية لديه من خلال "**التحرر**" علاوة على تحويل المركز (أي الغرب) إلى هامش من خلال ما أسماه بـ "**علم الاستغراب**"، ليتحول الاستشراق لديه إلى ما أسماه هو بـ: "**الاستشراق المضاد**"[٧].

وفي ضوء ما سبق تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

- ما المنهج المتبع لنقد الاستشراق عند شخصيات الدراسة؟
- هل كان النقد من خلال منهج حقيقي أم من خلال إطار أيديولوجي مسبق على النتائج؟
- ما مضمون الخطاب النقدي لدى شخصيات الدراسة؟

- ما مدى تمكن شخصيات الدراسة من التراث من ناحية، والاطلاع الجاد على أعمال المستشرقين من ناحية أخرى؟ وما أبرز الخصائص المشتركة بينهما؟
- ما أبرز الانتقادات التي يمكن أن توجه لكلٍ منهما؟

منهج الدراسة:

يفترض أن منهج الدراسة سيحدد زاوية النظر إلى الموضوع، ولما كان الباحث لا يملك الإحاطة بأي موضوع من أبعاده المختلفة كافة، فإن الباحث سيحاول رسم إطار منهجي خاص ومحدد قد يساعده على تحديد الإجراءات التي من شأنها أن تساعد في الكشف عن موضوع البحث.

ولذلك ستعتمد هذه الدراسة على "**توظيف جهاز المفاهيم**"[٨] الوارد لدى المفكر المصري الشهير **محمود رجب (ت: ٢٠٠٢م)** لتسليط الضوء على تجربة "**التمرئي**" الواردة في كتابه الشهير: "**فلسفة المرآة**"[٩]، فإذا كان الاستشراق يمثل "**رؤية**" الغرب للشرق، كما أن نقد الاستشراق يمثل رؤية الشرق لرؤية الغرب للشرق أي: "**رؤية تجاه الرؤية**" أو "**رؤية للرؤية**"، فبالتالي فإن تجربة "**التمرئي**" قد تكون مفيدة وقيمة بوصفها إجراءً منهجيًا لدراسة هذا الموضوع.

فهناك تبادل للنظرات والرؤى وكأننا في غرفة ممتلئة بالمرآيا تُظهر صورًا عديدة، بل وصورًا معكوسة أيضا. وإذا كانت تجربة "**التمرئي**" ستحدث تغييرات عميقة فى عملية التعرف على "**الذات**"، فإن من شأنها أيضا أن تساعد على اكتشاف "**صورة الذات في عيون الآخر**"، واكتشاف هل هذه الصورة صادقة؟ أم مخادعة؟ ليس هذا فحسب، بل ستحاول أيضا الكشف

عن مدى مصداقية الصورة المنطبعة لدينا عن "**الاستشراق**" وهل صورتنا عن الاستشراق صورة صادقة أم مخادعة أم مشوهة أم ضبابية....؟ وهل للاستشراق صورة واحدة أم صور متعددة؟ وإذا كانت الصور متعددة فما معيار هذه التعددية التي قد تؤدي إلى إظهار صور متضاربة ومتناقضة تجاه الاستشراق؟

فكما أن المرآة صادقة إلا أنها مخادعة في الوقت ذاته، فالمرآة تُظهر الشيء كما هو بأمانة وصدق، إلا أنها مخادعة لأنها تُظهر الأيمن أيسر، والأيسر أيمن. كما أن موقع الرائي للمرئي سيساعد في تشكيل الصورة، فباختلاف زاوية الرؤية، ستختلف الصورة المعكوسة على المرآة، وعكس الصورة المعكوسة سيؤدي إلى صورة أخرى، وبالتالي نكون أمام صور المعكوسة لا نهائية..

وفي هذا الإطار المنهجي يجب الانتباه إلى ما يمكننا تسميته بـ "**المساحة المعرفية المناسبة للرؤية**" فالالتصاق التام بالمرآة لن يؤدي إلى إحداث ما يسمى بالمساحة المعرفية الكافية لانطباع الصور، كما أن الابتعاد التام عن المرآة سيؤدي إلى إحداث صورة "**ضبابية**" أو صورة "**باهتة**" أو صورة "**مشوهة**".

ويمكننا تفسير المقصود بـ: "**المساحة المعرفية المناسبة للرؤية**"– طبقا لهذه الدراسة– بالإطار الثقافي، فالإطلاع على الثقافات الأخرى سيمثل ما نعنيه بـ "**المساحة المعرفية**" نظرًا لأن الانغلاق في إطار ثقافي واحد ومحدد سيعيق حركة "**التعرف على الذات أمام المرآة**" فالثقافات الأخرى يمكن اعتبارها مرآة لاكتمال إدراك الأنا للذات، وفي الوقت نفسه لن يكون الاطلاع

التام على الثقافات الأخرى مفيدًا في حالة "**القطيعة التامة مع ثقافة الذات/ التراث**"، وبالتالي ستكون تجربة "**التمرئي**" هنا مفيدة بقدر الإلمام بثقافة "**الذات**" من ناحية، وثقافة "**الآخر**" من ناحية أخرى.

وبالطبع ستكون المادة الماثلة "**الثقافة العربية الإسلامية**" ممثلة لثقافة الذات، و"**الاستشراق**" صورة تعكس تصور الآخر "**المغاير ثقافيًا**" عن "**الذات**"، في حين ستمثل عملية "**نقد الاستشراق**" صورة صورتنا المعكوسة عن الآخر. وربما زاد في هذه الورقة نقد الباحث لنقد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر لدى الشخصيات الماثلة في الدراسة، مما قد يؤدي إلى تقديم صورة معكوسة جديدة.

وبالتالي يفترض أن تكون الشخصيات الماثلة في الدراسة على معرفة تامة بـ:

١- معرفة متخصصة بالتراث العربي الإسلامي "**المكونات المركزية للثقافة العربية الإسلامية**".

٢- معرفة متخصصة بالإنتاج العلمي للحركة الاستشراقية عبر مراحلها التاريخية المختلفة ومدارسها المتنوعة" من ناحية أخرى.

٣-ظهور أثر "**المعرفة بالتراث**" من ناحية، والإلمام المتخصص ببعض جهود الحركة الإستشراقية "**الإنتاج العلمي للاستشراق**" من ناحية أخرى في دراستهم التي قدمت نقد للاستشراق.

٤- غياب عنصر أو أكثر من العناصر السابقة سيؤدي بالضرورة إلى التأثير على "**الصورة المرئية**" مما قد يؤدي إلى إظهار صورة مرئية غير صادقة أو مخادعة بل وقد تكون مشوهة.

٥- يجب مراعاة وجود ما يسمى بـ "**الاستشراق السياسي**"[١٠] الذي يحاول بالفعل الهيمنة على العالم العربي، بشرط قيام الشخصيات الماثلة في الدراسة بتقديم أدلتهم وحججهم ودراساتهم لحالات وعينيات كافية **قبل تعميم الأحكام**، علاوة على مراعاة المراحل التاريخية المختلفة للاستشراق، ومدارسه المتباينة، وإلا يكون نقدهم هنا للاستشراق من منظور محدد سلفا...

وقبل الانتقال إلى الإطار التطبيقي القائم على فعل "**التمرئي**" لدى أنور عبد الملك من جانب، وحسن حنفي من جانب آخر، علينا الانتباه إلى ملاحظة أن هذه التجربة نفسها "**نقد الاستشراق**" شهدت حضورًا مكثفًا لدى مختلف التيارات الفكرية في العالم العربي والإسلامي سعيًا وراء فكرة "**رؤية الذات**" من خلال "**نقد رؤية الآخر للذات**"، أو "**تأكيد حضور الذات**" في مقابل "**نقد الآخر/ نقد الاشتسراق**" وبالطبع فإن الأدوات التكنيكية والميكانيزمية المتعددة ستعتمد بشكل أساسي على فعل "**التمرئي**" حتى وإن لم يتم التعبير عنها بنفس المصطلحات[١١].

ومن هذا المنطلق القائم على فعل "**التمرئي**" بصوره وأدواته وتكنيكاته المختلفة (بل والمعكوسة أحيانا عند البعض) سنجد عدة انتقادات عربية واضحة للأطر المرجعية الغربية التي قدمت تصورات للثقافة العربية الإسلامية، كما أن النقد امتد إلى كل من يقبل بهذه الأطر الغربية في العالم

العربي، حتى تم وصف من يقبلها بعبارات تعبر عن العلاقة الجدلية بين "**الآنا والآخر**" استنادًا إلى فعل "**التمرئي**"، ولو حاولنا البحث عن أمثلة فسنجد العديد والعديد مثل: "**مغترب في الآخر**"، "**المركز والهامش**".. ومصطلحات أخرى عديدة، وردت بنصها لدى أنور عبد الملك، وحسن حنفي، بل وغيرهما كثر من مفكري العرب.

وبصرف النظر عن الاختلافات الفكرية المتناقضة بين بعض شخصيات الفكر العربي المعاصر في الموقف من الاستشراق، سواء بالقبول التام أو الرفض المطلق أو محاولات التناول الموضوعي[١٢]، إلا أن القيمة المعيارية المشتركة بين الأطراف المختلفة ستعتمد على فعل "**التمرئي**"، فسواء كانت صورة الأنا لا تنعكس إلا في "**مرآة الآخر**" من جهة، أو تم "**نقد الآخر في مقابل تأكيد حضور الذات**" من جهة أخرى، ففي كلتا الحالتين سيظل الأمر مرتبطًا بالعلاقة الجدلية بين "**الأنا والآخر**" القائمة على فعل "**التمرئي**".

أولاً- نقد الاستشراق عند أنور عبد الملك:

تمهيد:

تعتبر مقالة أنور عبد الملك المعنونة بـ (الاستشراق في أزمة- L'Orientalisme en crise والمنشورة باللغة الفرنسية في مجلة ديوجين عام ١٩٦٣م) هي الأولى من نوعها؛ حيث يبدأ بنقد للاستشراق من منظور لا ديني أو قل غير إسلامي، كما أنها تعتبر من أوائل الدراسات الرائدة التي ادعت اعتمادها على المنهج الماركسي في نقد الاستشراق، كما أنها ستثير جدلاً واسعًا(١٣) لدى أغلب من اهتموا بحقل الاستشراق ونقده فيما بعد، ليس هذا فحسب؛ بل ستتحول هذه المقالة إلى أحد أهم المصادر المرجعية الواردة في ببلوجرافيا الدراسات العربية التي ستتناول نقد الاستشراق فيما بعد.

ومن اللافت للنظر أن المصطلحات الأكثر حضورًا في هذه المقالة هي:

- **ماركسية** (إحدى عشرة مرة).
- **شيوعية** (سبع مرات).
- **الاتحاد السوفيتي** (سبع عشرة مرة).
- **اشتراكية** (خمس عشرة مرة).

وتأتي المصطلحات السابقة كافة لتكون في مواجهة مصطلح **الاستعمار** الوارد في المقالة (أربع عشرة مرة).

ومن الواضح أيضا الغياب التام لأي مصطلحات تعبر عن البنية الثقافية العربية الإسلامية (الأنا/ الذات الثقافية). ومن خلال الملاحظة

السابقة فإن الباحث يطرح التساؤل التالي: هل تصلح هذه المقالة لو قدمت على أنها دراسة على شعوب أمريكا اللاتينية مثلا؟ وقد يبدو السؤال السابق غريبًا وغير مألوف وخارجًا عن السياق، لكننا سنرى فيما بعد أسباب طرحه.

فمن خلال القراءة المتأنية لهذه المقالة من ناحية، ودلالة الأعداد والمعنى للمصطلحات من ناحية أخرى يظهر بوضوح أن نقد أنور عبد الملك للاستشراق يتم من خلال ميكانيزمات وأدوات "**مرئية**" تعتمد على وضع المقارنة بين مرآتين.

المرآة الأولى: تعكس صورة الغرب الرأسمالي الذي يرفضه وينتقده أنور عبد الملك.

المرآة الثانية: تعكس صورة الاتحاد السوفيتي الذي يعتبره أنور عبد الملك النموذج المثالي للاستشراق.

في حين أن **(الشرق)** نفسه موضوع الدراسة سيحضر على استحياء، بل يمكننا القول بأن **(الشرق)** موضوع الدراسة عند أنور عبد الملك– ربما– ليس أكثر من مبرر أو سبب أو حجه لنقد أوروبا الغربية، في مقابل الاتحاد السوفيتي، وسيتم ذلك عن طريق إسقاط النمط الماركسي على الاستشراق الغربي بصرف النظر عن منهجيته.

ولعل ما يؤيد ذلك أن المقالة التي كتبها أنور عبد الملك "**الاستشراق في أزمة**" كتبت أصلا باللغة الفرنسية، أي أن المخاطب هنا هو القارئ الغربي عامة والفرنسي خاصة، ولم يكن هناك حرص على ترجمة المقالة إلى اللغة العربية من طرف المؤلف إلا بعد نصف قرن تقريبا من كتابتها.

ولذلك فإننا لو أردنا تطبيق هذه الدراسة– ونقصد دراسة أنور عبد الملك "الاستشراق في أزمة"– على شعوب أمريكا اللاتينية فالأمر لن يحتاج أكثر من تعديلات طفيفة لعدة كلمات وفقرات هنا وهناك لن تؤدي إلى إحداث أي تغيير عميق في المعنى. فمادام الغرب هو نفسه، والاتحاد السوفيتي هو نفسه، والصراع بين الغرب من ناحية والاتحاد السوفيتي من ناحية أخرى قد طال أمريكا اللاتينية، فتغيير **مبرر** الدراسة من الشرق إلى أمريكا اللاتينية فعلا لن يكون بالأمر العسير، قد نحتاج فقط إلى معلومات ثقافية بسيطة عن شعوب أمريكا اللاتينية. وسنكتشف تفصيلا الصور المرآوية المختلفة الناتجة عن ذلك، ولكن قبل الدخول في تفاصيل ذلك ستواجهنا التساؤلات التالية:

- هل سيشكل الإطار النظري عند أنور عبد الملك منهجية حقيقية تسعى إلى التفسير والتأويل؟
- أم أنه إطار أيديولوجي **[ماركسي]** مزين بالشكل المنهجي؟
- وهل ستتضمن منهجيته إجراءات وقواعد لتقييم الاستشراق من ناحية أو دراسة بنية ومكونات الثقافة العربية الإسلامية [المادة التي حللتها الدراسات الاستشراقية] من ناحية أخرى؟

١- المصطلحات المركزية الواردة في مقالة الاستشراق في أزمة:

يصعب البدء في التعرف على موقف أنور عبد الملك من الاستشراق دون إدراك مجموعة المصطلحات المركزية التي ستشكل بدورها الإطار النظري والمنهجي لديه، وأعتقد أنه في حالة إغفال هذا الإطار فسيكون من

الصعب الإمساك بالمعاني داخل إطارها الفكري والفلسفي، خاصة أن أنور عبد الملك نفسه هو من حدد في مقدمته لكتابه "**الجدلية الاجتماعية**" هذه المبادئ. فقبل الشروع في عملية تحليل موقفه من الاستشراق علينا محاولة إدراك المكونات الفكرية التي ستتحكم في إخراج أفكاره وصياغتها في هذا الصدد. ولعل أول هذه المصطلحات وأهمها وأبرزها هو مصطلح "**الجدلية الاجتماعية**"، حيث سيمثل هذا المصطلح القالب التحليلي الذي سيحتوي على مضمون موقف أنور عبد الملك من الاستشراق.

وللجدلية الاجتماعية عند أنور عبد الملك معنى خاص، فهي تتكون من ذلك الجدل الدائم بين دائرتين؛ دائرة "**الذاتية**" والتي تعني الذات الماثلة في فئات المجتمع وطبقاته ومن الممكن أن نسميها بـ "**الأنا**"، ودائرة "**الخارجية**" والتي تمثل الآخر من أمم وثقافات أخرى. وسيؤدي التفاعل الدائم بين هاتين الدائرتين إلى توليد ما يسميه أنور عبد الملك بمفهوم "**الخصوصية**"(١٤)، فكلما زادت محاولات وقدرة دائرة "**الخارجية**" في الهيمنة والسيطرة على دائرة "**الذات**" أدى ذلك إلى تشكيل تحدٍ جديد للذات سيساعدها في التمسك أكثر "**بخصوصيتها**"، وبذلك الأسلوب ستبدأ نواة جدلية جديدة في التفاعل بين "**حركات التحرر والثورات الوطنية والاجتماعية الداخلية**" من ناحية، "**والقوى الاستعمارية الخارجية**" من ناحية أخرى.

حيث ستهدف **الأولى** إلى تأمل ذاتها في مرآتها الثقافية لتأكيد الخصوصية القومية والوطنية والاجتماعية والثقافية **للذات**، في حين ستحاول **الثانية** السيطرة والهيمنة من خلال طمس صورة الذات وتشويهها في

الماضي والحاضر ثم إعادة تشكيل صورة الذات بالشكل والطريقة التي تتفق مع أهدافها ومصالحها طبقا لتصور أنور عبد الملك.

وسيؤدي هذا التفاعل الدائم والمستمر– طبقا للإطار الفكري عند أنور عبد الملك– إلى إيجاد وخلق ما يسمى بـ "**العامل الحضاري**"(١٥) الذي يتمثل في توكيد مختلف المعاني الإيجابية الاجتماعية الفكرية والحضارية للذات، في مقابل رفض فكرة العقل السلبي أو العقل العدمي (The Negative Mind) المشكل عن طريق الآخر المهيمن والمسيطر والمستعمر والمتحكم في الذات.

هذا هو الإطار المنهجي النظري الذي يقرأ أنور عبد الملك من خلاله "**مفهوم الاستشراق**"، ليضاف إليه مفهوم آخر وهو "**مفهوم السلطة**"(١٦). إلا أنني أعتقد بأن المفارقة الحقيقية التي ستصطدم اصطدامًا حادًا بهذا المنهج "أو قل هذه الأيديولوجيا" الماركسي (ة)– عند أنور عبد الملك– ستكمن في السؤال التالي:

- هل كان الاستشراق يسعى إلى فهم الثقافة العربية الإسلامية من دائرة الخارج أم من دائرة الداخل؟
- هل كانت التصورات والأفكار الغربية عن الثقافة الإسلامية العربية هي معيار الحكم الدائم من طرف الاستشراق؟
- ولو افترضنا جدلا أن الاستشراق قد درس الثقافة الإسلامية العربية من دائرة الخارج أو من خلال التصورات الغربية المسبقة عن

الشرق، فهل استمر الاستشراق في دراسة الشرق من هذا المنطلق بشكل مطلق؟

ولتوضيح المعنى والهدف من التساؤلات السابقة سنحتاج إلى ضرب مثال، وليكن الإسلام (بالمعنى الديني والثقافي والاجتماعي)، كثيرة هي الدراسات الاستشراقية المرتبطة بالإسلام، إلا أن السؤال الجوهري هنا طبقا للتساؤلات السابقة:

- هل درس الاستشراق الإسلام من الداخل؟ أم قام الاستشراق بدراسته من الخارج؟

وبالطبع الإجابة عن هذا التساؤل ستكون مختلفة ومتباينة من مستشرق لآخر، بل قد تكون متضاربة أيضا لو راعينا التحولات المتعددة في تاريخ وأهداف ومناهج الحركة الاستشراقية. أي أننا لا نعتقد بإمكانية تقديم إجابة مطلقة سواء بالسلب أو الإيجاب عن هذا التساؤل **(بخلاف أنور عبد الملك الذي قدم حسمًا آحادي الجانب لهذا الموضوع)**، خاصة لو راعينا أن كل مستشرق على حده قد يشكل حالة خاصة، إلا أن قراءتنا لتاريخ الاستشراق تظهر وجود الاتجاهين في مختلف المراحل التاريخية للاستشراق(١٧).

فمن إطار موضوعي لا يمكننا القول بغياب (أو عدم حضور) النمط الاستشراقي الذي قدمه وحلله أنور عبد الملك (خاصة في مرحلة الاستعمار)، لكن في الوقت نفسه لا يمكننا غض النظر عن الأنماط الاستشراقية الأخرى التي تختلف شكلاً ومضمونًا مع هذا النمط (أي النمط الذي يقدمه أنور عبد الملك)، وأيضا لا يمكننا القول بأن أنور عبد الملك

يجهل وجود أنماط واتجاهات استشراقية قدمت إسهامات علمية جادة ومفيدة للحضارة العربية بالرغم من تجاهله التام والكامل لهذا الأمر.

وبالعودة إلى المقولات المنهجية عند أنور عبد الملك فإن هذه المقولات قد تكون قابلة للتطبيق على الحالة الاستشراقية التي تدرس الإسلام من الخارج، لكن علينا أن نتذكر أن هذه الدراسة الخارجية ستكون كالزجاج الهش القابل للكسر، حتى لدى أصحابها، لأنه كيف ستتمكن من الهيمنة على الذات في ظل عدم قدرتها على فهم أدق تفاصيل الخصوصية الدينية والثقافية والاجتماعية للذات؟! وبالتالي سيكون هذا الأمر معضلة للمقولات المنهجية عند أنور عبد الملك. ولو كانت دراسة الذات من داخل الإطار الثقافي والديني والاجتماعي، فبالتالي سيؤدي ذلك إلى تلاشي المقولات المنهجية عند أنور عبد الملك.

لكن اللافت للنظر أن دراسة أنور عبد الملك للاستشراق لا تفترض- ولو على الصعيد النظري- وجود دراسات استشراقية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، تهدف إلى فهم الثقافة العربية الإسلامية من الداخل بهدف أو أهداف مغايرة لأهداف الاستعمار والهيمنة والسيطرة على الشرق، وربما تكون تلك هي الإشكالية الكبرى.

ومن ضمن المفارقات التي يمكننا استنتاجها من مقالة "**الاستشراق في أزمة**" خاصة، ومن أعمال أنور عبد الملك عامة، أن أعماله- ومن ضمنها بالطبع هذه المقالة- قد خلت من أي عمل بسيط أو مكثف لدراسة بنية أو مكونات الحضارة العربية الإسلامية، مما سيجعل عمله في هذا الإطار منهجيًا فقط على الصعيد النظري غير قابل للتطبيق[١٨]، فكيف يمكنه تقديم

نقد حقيقي للاستشراق في الوقت الذي تفتقد أعماله إلى "**مكونات الثقافة العربية**" المادة الخام لأي دراسة استشراقية؟!.

٢- الصور المرآوية لأنماط الاستشراق ومستوياته عند أنور عبد الملك:

يرى أنور عبد الملك أن هناك متغيرات تاريخية وسياسية واجتماعية أدت إلى إعادة النظر للاستشراق؛ وإعادة تقييم مفهومه وأدواته ومنهاجه، **من طرف الذات**(١٩)، وتتمثل هذه المتغيرات في: "التأثير الحاسم للعامل السياسي الذي هو انتصارات حركات التحرير القومي المتنوعة على النطاق العالمي"(٢٠). فبعد أن كان ينظر إلى الشعوب المستعمرة نظرة "**الاحتقار والاحتلال**"- على حد تعبيره- فقد أدت الثورات التحريرية الكبرى إلى امتلاك هذه "**الذات**" السيادة، ومن هذا المنطلق يبدأ أنور عبد الملك في فهم الاستشراق وتحليله ليقدمه في النقاط التالية:

أولاً- الإشكالية:

حيث يتم- طبقا لتصوره- دراسة الشرق بوصفه "**موضوعًا**" للدراسة يتميز بأنه "**آخر**"، لكن هذا الآخر ينظر إليه على كونه "**شيئًا**" علاوة على أن "**الآخروية**" هنا هي آخروية تكوينية وجوهرية- بالاصطلاح الفلسفي إن جاز التعبير- وهنا يعتبر "**الشرق**" موضوع الدراسة، أمرًا سلبيًا وغير مشارك، وحتى لو تم منحه "**ذاتية**" فإن هذه الذاتية لا تتجاوز كونها ذاتية "**تاريخية**" وبالتالي فإنها ستكون "**ذاتية غير نشطة**" وغير مستقلة، وليست لها أية سيادة على نفسها، وبالتالي يصبح "**الشرق**" الوحيد، أو الشرق

"**الموضوع**" الذي يمكن الاعتراف به وحده- من طرف الاستشراق كما يرى أنور عبد الملك- هو "**الشرق**" الكائن التابع فلسفيًا، فهو "**آخر**" حتى في علاقته بنفسه، لأن الذي يعرفه، ويحركه للعمل "**غيره**"(٢١).

وكأن هذا الشرق- حسب تصور أنور عبد الملك- هو صورة مرئية لتصور الغرب عن الشرق بوصفه "**موضوع**"، صورة معبرة عن رؤية الغرب للشرق **(الآخر)** في مرآة ذاته، ليس هذا فحسب بل إن هذه الصورة لن تكون صورة مرآوية لصورة الغرب لنفسه في مرآته عبر صيرورته المتجددة، لأن صورة الشرق المعكوسة على سطح المرآة هنا لا تتسم بـ "**الذاتية النشطة**" على اعتبار أن الشرق **موضوع** من ناحية، كما أن الصورة المنعكسة على سطح المرآة غير منتجة من طرف الشرق بل من طرف الغرب **(الرائي والمرئي)** من ناحية أخرى.

ومن هنا يمكننا تفسير موقف أنور عبد الملك- حسب المصطلحات المنهجية للدراسة- أن الإشكالية تكمن في أن الصورة المرآوية التي يقدمها الغرب لنفسه عن الشرق أولا، ثم يفرضها على الشرق ذاته ثانيًا، ليست صورة "**أصيلة**" للشرق وإنما هي صورة "**زائفة**" أنتجها الآخر. لأنها لم تنتج من خلال فعل تمرئي الشرق لذاته في المرآة، بل أنتجها الاستشراق من خلال رؤيته هو، رؤية الآخر للشرق. إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه علينا: هل هذه الصورة التي يقدمها أنور عبد الملك صورة حقيقية وواضحة للاستشراق؟!.

وبصرف النظر عن إجابة التساؤل الأخير- مؤقتا- فإن حل الإشكالية من منظور أنور عبد الملك- وبمقولات الدراسة المنهجية- لن يكون إلا من

خلال إعادة فعل "**التمرئي**" للشرق من طرف الشرق ذاته ولذاته، كي تنعكس الرؤية في مرآة "**الذات**" التي تعي ذاتها بذاتها، وليس من خلال انعكاس رؤيتها في مرآة الآخر، ومن هذا المنطلق قد يمكننا فهم ما أسماه أنور عبد الملك نفسه بـ: "**الذات صاحبة السيادة**"(٢٢) أي الذات صاحبة الرؤية النابعة من نفسها لنفسها أمام المرآة، كما يمكننا اعتبار "**انتصارات حركات التحرر القومي**" هي المرآة التي ستعكس للذات سيادتها. وبذلك ستتغير "**الرؤية**" من خلال تغير "**الرائي**" ليتم إنتاج مشهد "**مرآوي**" جديد نابع من الشرق ذاته، وليس من طرف الغرب.

ثانيًا- الأبحاث المكتوبة:

يرى أنور عبد الملك أن الاستشراق بمجموعاته المتعددة يتبنى مفهومًا جوهريًا بخصوص شعوب الشرق، ويعتمد هذا المفهوم من الانتقال من "**سلم الأنماط العرقي**" ثم سريعًا ما يتحول إلى ما أسماه بـ "**العنصرية**"، وطبقا لتصوراته يتم ذلك عن طريق "تحويل الشيء المدروس إلى شيء آخر بالارتباط بذلك الذي تصعد إليه الذات الدارسة"(٢٣)، وبالتالي تكون الذات الغربية الدارسة للشرق هي معيار تحديد مستوى ودرجة "**سلم الأنماط العرقية**" قبل أن تقوم باتخاذ أحكام "**عنصرية**".

والغريب في الأمر أن كتاب "**الجدلية الاجتماعية**" لأنور عبد الملك يسهب في شرح هذا الأمر إلا أن الكثير من الدراسات الاستشراقية لمرحلة ما بعد خمسينات القرن الماضي حتى وقتنا الراهن لا ينطبق عليها هذا الوصف الأيديولوجي المثير للدهشة.

صحيح أن هذه الفرضية كانت موجودة في قلة من الدراسات الاستشراقية حتى ثلاثينات أو أربعينات القرن الماضي على وجه التحديد، لكن النقد الذاتي للحركة الاستشراقية قد رفض مثل هذه الأفكار. وإذا كانت هذه الأفكار قد وجدت في مرحلة تاريخية معينة من تاريخ الاستشراق فلا يعني ذلك أبدا تحولها إلى "**فكرة رئيسة على مستوى الأبحاث المكتوبة**" في الكتابات الاستشراقية.

ثالثًا- منهج الدراسة والبحث:

قبل الدخول في المنهج، يرى أنور عبد الملك أن المفاهيم العامة المستترة هي التي ستشكل المنهج، ذلك لأن هذه المفاهيم تشكل الرؤية أيضا. وسيكون من أهم هذه المفاهيم وأولها "**مفهوم الماضي**" حيث سيكون ماضي الأمم الشرقية هو الميدان الخصب للدراسات الاستشراقية؛ بوصفها دراسات لحضارات ميتة ومنفصلة كلية عن ورثتها المعاصرين. وبالتالي سيكون التركيز على دراسة الماضي في مختلف جوانبه وأشكاله الثقافية، وبذلك سيكون المنهج الأمثل للاستشراق- وفقا لتصور أنور عبد الملك- هو "**المنهج التاريخي**"، وحتى تكتمل المؤامرة كما يرى أنور عبد الملك فإن الاستشراق سيتجاهل في صمت الإنتاج العلمي الجاد للباحثين المعاصرين في البلدان الشرقية، بل سيصفه على أنه "**عديم القيمة**"، كما ستشوه سمعته، وسيوصف بالتخلف، ويستثنى من ذلك تلك الأعمال النادرة التي تشارك الاستشراق في توجه كما يرى أنور عبد الملك(٢٤).

ومن الملاحظ أن أنور عبد الملك لا ينتبه إلى وجود دراسات استشراقية عديدة تتناول الحالة الثقافية المعاصرة في البلدان الثقافية من مختلف

النواحي، علاوة على اعتماد الاستشراق على عدة مناهج أخرى غير المنهج التاريخي.

فلو نظرنا إلى الدراسات الاستشراقية التي اتجهت إلى دراسة "**التصوف الإسلامي**" مثلا فسنجد أن جزءًا- أكرر جزءًا وليس الكل- من هذه الدراسات قد ركز على دراسة الماضي، وذلك بهدف الفهم التاريخي للأفكار والمصطلحات والمدارس والاتجاهات الصوفية ونشأتها وتطورها (وهذا التوظيف للمنهج التاريخي يختلف كمًا وكيفًا عن ما يقصده أنور عبد الملك)، فمن الصعب فهم الظاهرة والحالة الصوفية دون فهم نشأتها وتطورها التاريخي. كما أن الاستشراق لم يقتصر على دراسة الماضي التاريخي فقط، بل تناول الحاضر أيضا، وكلما تطور الفهم الاستشراقى زادت نسبة الدراسات التي تتناول الحاضر وقلت نسبة الدراسات التي تتناول الماضي. وشيئًا فشيئًا أصبح الاستشراق يعتمد على مناهج متعددة منها: المنهج الدلالي، المنهج الهرمينوطيقي، المنهج الظاهراتي، المنهج البنيوي، ومناهج أخرى عديدة.

رابعًا- الاستشراق الجديد في أوروبا الغربية:

يرى أنور عبد الملك أن كل ما قدمه الاستشراق سابقا لم يكن كافيًا لخدمة الإمبريالية الغربية، خاصة في ظل التغييرات الجوهرية التي حدثت في المجتمعات العربية الإسلامية في القرن العشرين؛ حيث ستؤدي هذه التغييرات بالإضافة لعوامل أخرى إلى عملية تحديث نوعي في الاستشراق ليبدأ في الاعتماد على المتخصصين في العلوم الاجتماعية[٢٥].

حيث يرى أن اعتراف الغرب بالحاضر أصبح أخيرًا موضوعًا للدراسة، ليتم البحث عن "**سلالم أنماط مناسبة لشعوب الشرق المختلفة عن شعوب الغرب**" إلا أن هذه النزعة التحديثية في الاستشراق ستدرس الواقع "كأجزاء أو كقطاعات بصفتها أبنية وليس بوصفها نتاج كلي لعملية تطور تاريخي"(٢٦)، علاوة على أن الغرب قد ذهب- على حد تعبيره- إلى تجنيد مجموعة فرعية جديدة من "الناشرين، الصحفيين المتخصصين، وجامعات أيضا"، ويتصف هؤلاء- يقصد هذه المجموعة الأخيرة- بالجهل التام بلغات الشعوب الشرقية وبمستوى تعليمي متهلل عن الشرق، لكن أساليبهم البلاغية في الكتابة مع المواهب الصحفية ومنطقية وعقلانية التفكير جعلت هؤلاء يقدمون كتاباتهم على أنها مصادر للمعلومات المباشرة والمتخصصة لمثقفي الشرق وللعامة في الغرب(٢٧).

خامسًا- التمييز الأيديولوجي بين الاستشراق الأوروبي والاستشراق الاشتراكي:

يميز أنور عبد الملك ضمنيًا بين نوعين من الاستشراق، **النوع الأول:** وهو الاستشراق الغربي في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وهذا النوع قائم على تقديم تصور للشرق كما يراه الغرب، وأن أغلب هذه التصورات- كما يرى أنور عبد الملك- لا تتفق مع الصورة الحقيقية للشرق، وقد شرحنا تفاصيل هذا النوع الأول من الاستشراق عند أنور عبد الملك في الصفحات السابقة. أما **النوع الثاني:** فهو ما أسماه عبد الملك بـ "**الاستشراق الجديد في القطاع الاشتراكي من العالم**" أي الاستشراق الذي نشأ في أحضان الاتحاد السوفيتي السابق، والذي عقد مؤتمره الأول للمستشرقين السوفيت في مدينة

طشقند عام ١٩٥٧م، ليصل إلى ذروة تألقه مع مؤتمر المستشرقين المنعقد في موسكو عام ١٩٦٠م(٢٨).

ويرى أنور عبد الملك أن هذا النوع الأخير من الاستشراق هو الذي "يؤخذ بجدية لأنه- كما يرى- يخدم مصالح شعوب الشرق"(٢٩). وهناك نص مهم جدا نرى ضرورة ملحة لاقتباسه كاملاً من أنور عبد الملك:

> "نحن الآخرون... أي المستشرقون السوفيت نعتبر أن واجبنا العلمي وواجبنا الذي يمليه ضميرنا هو مساعدة شعوب الشرق بلا توقف في نضالها من أجل مستقبل أفضل، ونحن مقتنعون بأن اكتشافاتنا ونتائجنا العلمية وإن منهجنا العميق المنهج الماركسي المرتكز على النظرية العلمية التقدمية... نقول نحن مقتنعون بأن ذلك سوف يساعد شعوب آسيا وأفريقيا على حياة أفضل وإيجاد أكثر الطرق فعالية لتحقيق التقدم".....(٣٠)

إن النزعة الأيديولوجية تتساقط دون أي تفسير من هذا النص الذي يمكن وصفه بأنه خطابي إنشائي، أهل كان الاتحاد السوفيتي يساعد حقا شعوب الشرق من أجل الشرق؟ أم من أجل صراعه مع الغرب في مرحلة الحرب الباردة؟ وما تلك الإسهامات التي قدمها الاستشراق السوفيتي "***والمتميزة عن الاستشراق الغربي***" للشرق؟ وهل تطبيق المنهج الماركسي على دراسة الشرق سيؤدي بالفعل إلى عالم شرقي علمي تقدمي؟ إن النص

السابق لا يمثل إلا دعاية سياسية للاتحاد السوفيتي السابق، بل وتوظيف سياسي صارخ ومرفوض لبعض المستشرقين الروس وغير الروس[٣١] وقتها.

لا أستطيع أن أنكر أن الاستشراق في الاتحاد السوفيتي قد أفاد بالفعل الحياة العلمية ببعض الدراسات العلمية الرصينة الجادة (مع ملاحظة أن الأمر ذاته موجود في الاستشراق الأوروبي)، لكن ذلك لا يعني أن الاتحاد السوفيتي برئ من التوظيف السياسي للاستشراق في معاداته للغرب من ناحية، وفي استمالة الشرق إلى طرفه من ناحية أخرى. كما لا أستطيع أن أنكر وجود توظيف سياسي للاستشراق في الغرب، وخاصة في مرحلة الاستعمار، ولا أملك تبرير ذلك على الصعيد العلمي أو الأخلاقي، لكن الأمر ذاته قد تم في الاتحاد السوفيتي ولكن ربما بطريقة معكوسة من أجل المصالح السياسي، وأعتقد أن ذلك الأمر يشجعنا على ضرورة التمييز بين "**الاستشراق العلمي الأكاديمي**" من ناحية، و"**الاستشراق السياسي**" من ناحية أخرى.

وبالعودة إلى أنور عبد الملك فإن أيديولوجيته الماركسية الواضحة في ثنايا كتابه "**الجدلية الاجتماعية**" اتضحت أكثر في اقتباسه لخطاب الأكاديمي الروسي الشهير جانورث، بل أخذته أيديولوجيته تلك إلى الدفاع عن الاتحاد السوفيتي الذي اعتبره "**شريكا مع الذات الشرقية**" حتى بعد سقوطه بسنوات.

ثانياً- من نقد الاستشراق إلى علم الاستغراب عند حسن حنفي:

تمهيد:

قبل الدخول في معرفة موقف حسن حنفي من نقد الاستشراق نعتقد بأهمية تحديد مكانة الاستشراق في مشروعه الفكري. فإذا كان حسن حنفي يعلن أن مشروعه الفكري قائم على ثلاثة أركان رئيسة هي: **(التراث القديم- التراث الغربي- الواقع المباشر)** كما أنه يعلن أن المستويات الثلاثة تدخل في علاقات ديناميكية متعددة مع **(الأنا)** فموقفنا من التراث القديم تضع "**الأنا**" تاريخها الماضي وموروثها الثقافي، وموقفنا من التراث الغربي تضع "**الأنا**" في مواجهة الآخر المعاصر وهو الوافد الثقافي الغربي أساسًا، وموقفنا من الواقع حين تضع "**الأنا**" في خضم واقعها المباشر تحاول تنظيره تنظيرًا مباشرًا(٣٢)...

إلا أنني لا اعتقد أن مشروع حسن حنفي قد قام بتحديد مصطلح "**الأنا**" تحديدًا واضحًا مباشرًا، جامعًا مانعًا، فهل المقصود بـ **(الأنا)** في مشروعه الذات المصرية أم الذات العربية أم الذات الإسلامية؟! أم أن الذوات الثلاثة قد تداخلت لديه عبر كتاباته الكثيرة والمتعددة! وعلى أية حال يأتي موقع قضية الاستشراق في مشروع حسن حنفي المسمى بـ "**التراث والتجديد**" في القضية الثانية التي يسميها هو بـ "**الموقف من الغرب**". حيث إن الموقف من الغرب تراثه وحاضره سيمثل لدى حسن حنفي الموقف من "**الاستشراق**".

وقبل تناول نقد الاستشراق عند حسن حنفي نعتقد أنه من الأهمية تحديد آلية التناول، حيث سنقسم الموضوع لديه إلى قسمين رئيسين يمثل **القسم**

الأول: موقفه النقدي من الاستشراق، في حين سيمثل **القسم الثاني:** تلك النقلة النوعية من نقده للاستشراق إلى تأسيس ما أسماه بـ "**علم الاستغراب**".

١- نقد الاستشراق عند حسن حنفي:

يصعب البدء في التعرف على موقف حسن حنفي من الاستشراق دون إدراك مجموعة المصطلحات المركزية التي ستشكل بدورها الإطار النظري والمنهجي لديه، فإذا كانت هذه المصطلحات عند أنور عبد الملك هي "**الذات**" و"**الخارج**" فإننا سنجد ما يكاد يوازيها تمامًا عند حسن حنفي ماثلا في المصطلحات التالية: "**المركز**"، "**الأطراف**"، "**التحرر**".

فالإطار النظري للقالب النقدي للاستشراق عند حسن حنفي قائم على إدراك العلاقة بين "**المركز**" والذي يرمز من خلاله إلى "**الغرب**" و"**الاستشراق**" اللذين يقدمان أحكام وتصورات عن "**الأطراف**" أو "**الهامش**" الذي يرمز من خلالهما إلى "**الشرق**". وبذلك ستظهر علاقات ديناميكية من خلال تلك العملية الجدلية المعقدة بين هذه المصطلحات عند حسن حنفي. حيث سيحاول "**المركز**" السيطرة على "**الأطراف**" من خلال إحداث تغييرات جذرية قائمة على تحويل "**الأطراف**" من مجرد كونها "**دراسة موضوع**" إلى اعتبارها "**موضوع للدراسة**" محدد بحدود الغرب وأهدافه. في حين أن "**الأطراف أو الهامش**" سيحاول تحرير الذات من أحكام "**المركز**" من خلال عملية "**نقد الاستشراق**" الذي يسميه حسن حنفي بـ "**الاستشراق المضاد**" المتحول من "**ضرورة معرفية**" إلى "**شرعية وجودية**" على حد تعبيراته(٣٣).

تعددت كتابات حسن حنفي عن الاستشراق، لكن التتبع التاريخي لنصوصه ربما يكون الطريق الأفضل لمعرفة موقفه النقدي من الاستشراق نشأة وتطورًا، فمن مقالته الأولى في هذا الموضوع تلك المعنونة بـ **(الاستشراق)** والتي نشرت بمجلة "**الوحدة**" عام ١٩٩٢م وأعيد نشرها دون إجراء أي تعديلات عليها ضمن كتابه: **(هموم الفكر والوطن)** عام ١٩٩٧م. يذهب إلى القول بأن الاستشراق "هو هذه المجموعة من الدراسات التي قام بها الباحثون الأوروبيون، عندما أرادت أوروبا جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشعوب المستعمرة..."[٣٤]. ولو حاولنا أن نكتشف الدافع الحقيقي لتلك الدراسات الاسشتراقية في كتابات حسن حنفي فإننا سنجده يقدم الإجابة عن هذا التساؤل بمنتهى الوضوح عندما ذهب إلى القول: "لم يكن الغرض العلم للعلم، بل كان الغرض التبشير والغزو وتحقيق المصالح الاقتصادية"[٣٥]. وبالتالي ستكون الأدوات هي: الدراسات اللغوية- أولاً- حتى يتم مخاطبة تلك الشعوب بلغتها من ناحية، والدراسات التاريخية- ثانيًا- كي يتمكن الاستعمار من اكتشاف تاريخ شعوب تلك المستعمرات بهدف معرفة تاريخها من أجل إعادة التحكم في حاضرها ومستقبلها، والخصائص الثقافية- ثالثًا- كي يتمكن المستعمر من اكتشاف المكونات الذهنية لشعوب مستعمراته.

ومن هذا المنطلق ستكون الدراسات الاستشراقية- كما يرى حسن حنفي- ليست أكثر من مجرد دراسات تهدف إلى تمكين المستعمر الغربي من إحكام السيطرة على مستعمراته من مختلف النواحي، حتى لو ادعت تلك الدراسات الاستشراقية أنها علمية فستكون ليست كذلك، لأنها- على حد

تعبيره- "كاشفين النقاب عن دعوى العلم الظاهرية وحقيقة الهيمنة الباطنية"(٣٦).

ولو حاولنا وضع الصورة التي يقدمها حسن حنفي عن الاستشراق أمام صورة أخرى (عكسها تمامًا) قدمها معاصره عاطف العراقي (ت: ٢٠١٢م)، فسنجد الأخير يرفض الصورة التي قدمها الأول رفضًا صارخًا، بل ويصفها بجراءته المعروفة عنه بأوصاف حادة حينما نجده يقول: "إنها حملات مسعورة يحلو للكثيرين شنها على أناس- يقصد المستشرقين- أخلصوا إخلاصًا لا حد له للعلم والبحث العلمي في مجال إحياء التراث وقدموا العديد من الأفكار التي اعتقد أنها أفكار بناءة ومفيدة غاية الفائدة..." (٣٧).

وبالعودة إلى حسن حنفي فسنجد أن أهم من يميز موقفه من نقد الاستشراق- كما نرى من جانبنا- هو صراحته في القول بأن نقد الاستشراق بمثابة "**أيديولوجيات الشعوب المقهورة**" وبالتالي يكون نقد الاستشراق أيضا "أحد مظاهر معركة التحرر، تحرر الذات من أحكام الغير.... ومن ثم تصبح أحكام الذات التي تعبر عن حركاتها في التحرر مجرد أحكام ذاتية، صرخات وجودية، تعبر عن أزمة، وتكشف عن **عقدة نقص تجاه الآخر، ويصبح الاستشراق هو العلم، ونقد الاستشراق هو الأيديولوجيا**، قلبًا للموازين، وتبادلاً للأدوار "(٣٨).

وطبقا للمقولات المنهجية المستعارة من محمود رجب فإن "**المنظور إليه**" أي الشرق سيتحول في عملية نقد الاستشراق إلى "**ناظر**"، بعد أن كان "**منظورًا إليه**" من طرف الغرب. و"**الناظر**" أي الآخر الغربي سيتحول إلى "**منظور إليه**" من طرف الشرق، ومن هنا يمكن أن تحدث علاقات جدلية

متعددة قائمة على فعل "**التمرئي**" المتبادل بين الناظر والمنظور إليه. وقد عبر حسن حنفي بشكل غير مباشر عن هذا التمرئي المتبادل قائلا: "قلبًا للموازين، وتبادلاً للأدوار"[٣٩].... وفي موضع آخر يقول: "ونقد الاستشراق أحد مظاهر معركة التحرر، تحرر الذات من أحكام الغير، وانطلاق الأنا من قبضة الآخر على مستوى **التصور والرؤية**"[٤٠] لاحظ آخر كلمتين "**التصور والرؤية**".

فطبقا لتصور حسن حنفي– فإن "**الأطراف/ الهامش**" أي الأنا أو الذات تستشعر القهر نتيجة النظرة الدونية من "**المركز**" الغرب، وبناء عليه فإن التمرد على هذا الإحساس الشعوري عند حسن حنفي سيكمن في تبادل الأدوار من طرف الأنا لتتحول إلى مركز وتحول المركز إلى هامش.

ولا يجب إغفال عملية "**الإحساس الشعوري**" أو "**العقدة الشعورية**"– إن جاز التعبير– في نقد حسن حنفي للاستشراق. حيث ستظهر هذه العقدة الشعورية لديه في عدة مواضع بعضها مباشر والبعض الآخر غير مباشر، فمن ضمن مواضعها المباشرة في مصطلحات حسن حنفي "**الإحساس بالنقص عند الشرق**"، "**مركب النقص عند الأنا**"، "**الثأر التاريخي والثقافي من الغرب**"، "**علاقة السيد بالعبد**".... ومواضع أخرى عديدة. وربما تحول هذا "**الإحساس الشعوري بالعقدة**" إلى المحرك الرئيس عند حسن حنفي في عمليتي نقد الاستشراق من ناحية، وتأسيس علم الاستغراب من ناحية أخرى كما سنرى في التالي.

٢- البنية الشعورية ومحاولة تأسيس علم الاستغراب:

يذهب الدكتور محمود رجب إلى القول بأن فعل الانعكاس المرآوي يتضمن ازدواجية قائمة على "المماثلة والمغايرة، الهوية والاختلاف، العينية والغيرية، الذاتية والآخرية.... وغير ذلك من ثنائيات يتوقف قطباها كل منهما على الآخر توقفًا جدليًا متبادلاً...."[٤١] وتلك العملية الجدلية يصفها محمود رجب بـ "**شفرة التأمل الانعكاسي**" المعبر عن العلاقة بين الأنا والآخر بصرف النظر عن طبيعة هذه العلاقة بين الأنا والآخر. وبالتالي فإن فعل "**التأمل الانعكاسي**" ما هو إلا تمثيل للوعي القصدي بمعناه الفلسفي، كما أنه يعتبر البداية الحقيقة للوعي بالذات، فلم يعد مقتصرًا على معرفة النفس نفسها فقط، بل امتد ليصل إلى أن تعرف النفس نفسها وهي تعرف نفسها..[٤٢].

ولو حاولنا تطبيق ما سبق على ما كتبه حسن حنفي في إطار بحثنا سنحاول اكتشاف كيف مثلت "**البنية الشعورية**" وربما "**الإحساس الشعوري بالعقدة**"- بمعناها الفردي والجمعي- المحرك الأساسي وربما الشفرة الأساسية لفهم موقف حسن حنفي من الاستشراق من ناحية، ومحاولته تأسيس علم الاستغراب من ناحية أخرى.

حيث ذهب حسن حنفي إلى تقديم تعريف غير مألوف وغير معهود مسبقا للاستشراق حينما قال: "الاستشراق دراسة الحضارة الإسلامية من باحثين ينتمون إلى حضارة أخرى ولهم **بناء شعوري مخالف** لبناء الحضارة التي يدرسونها"[٤٣]... فكلمة السر في هذا التعريف هي "**البنية الشعورية**" بما يحمله هذا المصطلح من مكونات ودلالات سيكولوجية وثقافية، ليس هذا

فحسب بل إنني أعتقد أن المسكوت عنه في تعريف الاستغراب أيضا هو "**البناء الشعوري**" المرتبط بالذات عند حسن حنفي.

وسنرى كيف سيشكل هذا البناء الشعوري عند حسن حنفي الدافع للذات لنقد الاستشراق أولا، ثم تجاوز نقد الاستشراق للقيام بفعل تمرئي جديد، هو إعادة قراءة ماضي وتاريخ وحاضر الغرب (الاستغراب)، بهدف التخلص من العقدة الشعورية للأنا.

ماذا يعني الاستغراب؟ يذهب حسن حنفي لتقديم إجابات مباشرة عن هذا السؤال يأتي أولها: الاستغراب في مقابل الاستشراق... ومن هنا سيهتم هذا العلم باكتشاف كيف تكون الوعي الأوروبي ويشمل تاريخيته كلها، مصادره، بدايته، من أجل اكتشاف التكوين التاريخي لهذا الوعي والقضاء على أسطورة الثقافة العالمية، مطبقا المنهج التاريخي الذي طالما طبقه الاستشراق على الحضارة الإسلامية.....(٤٤).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا: ما الجديد الذي سيقدمه هذا العلم "**الاستغراب**"؟ فالحضارة الأوروبية ذاتها درست مسار الوعي الأوروبي عبر مراحله ومصادره ومختلف تفاصيله. إلا أن لحسن حنفي رأي آخر في هذا الأمر فهو يرى أن المادة التي يأتي بها الوعي الأوروبي "نوع من أنواع النقد الذاتي واضعا **نفسه في مرآة نفسه** تختلف عن مادة الاستغراب التي يتم فيها رؤية الغرب من منظور اللاغرب، رؤية الآخر من منظور الآنا"(٤٥)... وبالتالي سيكون "**الاستغراب**" هو قراءة الذات أو الأنا للآخر.

إلا أن هذا الموضوع يثير مجموعة من التساؤلات التي لا يتسع المجال لمناقشتها، مثل: هل يمكن أن يكون علم الاستغراب كيانًا ثابتًا كالاستشراق أم سيكون مجرد محاولات فردية محفوفة بالمخاطر؟ وهل تمتلك الذات الأدوات والآليات المنهجية والمؤسسية القادرة على القيام بذلك؟ وما جدوى وأهمية تقديم قراءة ذاتية للآخر (للوعي) الغربي؟ وهل هذه القراءة ستكون موضوعية أم محددة بأيديولوجيات مسبقة؟ **وإذا كانت بعض الانتقادات الموجه للاستشراق تتمثل في أنه يقدم قراءة للإسلام وثقافته وحضارته من الخارج، فهل سيكون علم الاستغراب قراءة للوعي الأوروبي من الخارج أم من الداخل؟** فكل هذه التساؤلات وتساؤلات أخرى عديدة تثير شكوك متعددة في الأمر.

ويستمر حسن حنفي في تعريف الاستغراب باعتباره الوجه الآخر والنقيض من "**الاستشراق**"، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا الشرقي من خلال الآخر الغربي فإن "**الاستغراب**" سيكون قادرًا على "فك **العقدة التاريخية** المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين **مركب النقص** عند الأنا **ومركب العظمة** عند الآخر"[٤٦]...

أليس النص السابق معبرا عن بنية شعورية قائمة على التأمل الانعكاسي؟! بل إن هذا التأمل الانعكاسي غير مكتف بتأمل الذات فقط، بل أصبح فعل "**التمرئي**" فيه قائم على العلاقة المركبة بين "**الأنا**" و"**الأخر**"، "**النقص**" و"**العظمة**"، "**العقدة التاريخية**"، وعدد كبير من المفردات والمصطلحات المتعارضة.

ومما سبق نستطيع أن نستكشف أن فعل "**التمرئي**" القائم على وضع "**البنية الشعورية**" في مقابل "**الاستشراق**" عند حسن حنفي هو الدافع والموجه والمحرك الأساسي للمؤثرات السيكولوجية والثقافية المكونة لما أسماه بـ "**الاستغراب**" بهدف التخلص من "**اغتراب الأنا نتيجة تحويل الغرب لها إلى آخر**"(٤٧)، ومن هذا المنطلق سيبدأ حسن حنفي في تحديد مسار علم الاستغراب بإعادة الشعور اللأوروبي إلى وضعه الطبيعي من أجل "التحرر من الاستعمار وبهدف التحرر الاقتصادي والسياسي والثقافي والحضاري، فطالما أن الغرب قابع في قلب كل منا كمصدر للمعرفة وكإطار مرجعي يحال إليه كل شيء للفهم والتقييم فسنظل قاصرين"(٤٨).

إلا أن الإشكالية أو المعضلة الرئيسة التي ستواجه حسن حنفي في هذا الإطار تتمثل في عدم اقتناعنا بمعيارية علم الاستغراب لعدة أسباب منها:

- أن رؤيته ترتبط أكثر بالبناء الشعوري القائم على مبدأ العقدة التاريخية مع الغرب.
- لا نستطيع أن نجد منهجًا لعلم الاستغراب يكون مخالفا للمناهج البحثية في الغرب.
- لو افتراضنا وجود إبداع من الأنا في علم الاستغراب فإنه سيحال إلى الثقافة الغربية بطرق عديدة منها: تحول الإبداع اللأوروبي إلى جزء من الكل الأوروبي نظرًا لأن مادته ومصدره مستمدة من الثقافة الأوروبية ذاتها، علاوة على أنه سيعتبر محاكاة للإبداع الغربي المتمثل في "الاستشراق".

الخاتمة:

١) وقع أنور عبد الملك وحسن حنفي في فخ الاستشراق المعكوس القائم على مبدأ "**متيافزيقا الاستشراق**"[٤٩] ويعني هذا المبدأ أن نقاد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر قد عابوا على الاستشراق قيامه بالفصل الأنطولوجي التام بين الشرق والغرب، إلا أنهم أنفسهم قد وقعوا في الفخ ذاته أثناء نقدهم للاستشراق، ليس هذا فحسب بل إن أغلب انتقاداتهم للاستشراق قد قاموا بتطبيقها حرفيًا ولكن بشكل معكوس، وكأننا هنا نقوم بوضع مرآة أمام مرآة أخرى لنرى بالفعل التطبيقات المعكوسة لأغلب الانتقادات التي وجهت إلى الاستشراق عامة. إلا أن أعلى صورة لتحقق ميتافزيقا الاستشراق قد وردت في كتابات حسن حنفي خاصة أن مؤلفاته التي تناولتها الدراسة قد خلت من أي دراسة تشريحية لأي عمل استشراقي.

٢) نعتقد أن نقد الاستشراق عند أنور عبد الملك وحسن حنفي يرتبط بإشكاليات عديدة، يمكن أن نقسمها إلى إشكاليات **الشكل**، وإشكاليات **الموضوع**. **فإشكاليات الشكل:** تتمثل في أن نقدهم يعتمد على مفاهيم ومناهج مستمدة أساسًا من الثقافة الغربية التي نشأ فيها الاستشراق، حتى أصبح من الممكن القول بأن شكل هذا النقد هو صورة من صور وأشكال النقد الذاتي للحضارة الغربية نفسها، خاصة أن مجمله وتفصيلاته دائرٌ من الناحية الفكرية في فلك الثقافة الغربية. حتى ولو كان برفضها ورفض هيمنتها السلطوية فسيكون ذلك بالاشتباك الفكري مع الثقافة الغربية بشكل

أو بآخر!! أما **إشكاليات الموضوع:** فستتمثل في إدراكنا إلى أي مدى يرتبط نقد الاستشراق عند أنور عبد الملك وحسن حنفي بمشكلات أخرى على رأسها مشكلتي **المنهج والأبستمولوجيا** من ناحية، ومضمون الاستشراق عبر مراحله التاريخية المختلفة ومدارسه واتجاهاته المتعددة من ناحية أخرى. من أجل اختبار موقفهما من عدم التناقض الذاتي (أي مع أنفسهم) من جانب، ومدى صحة انتقاداتهم من جانب آخر، خاصة إذا كان مدخلهما التمهيدي- الغير قابل للنقاش والواضح تمام الوضوح في كتاباتهما- لنقد الاستشراق أنه عبارة عن صور خيالية أو صور وهمية أو صور مزيفة أو صور غير حقيقية رسمها الغرب للشرق، ومصدرها مركزية الثقافة والحضارة الأوروبية، وهذه الصور الزائفة لا تُقدم إلا الشرق المُتوهم صورته في عيون الغرب بهدف ضمان السيطرة والهيمنة الغربية على الشرق.

٣) تظهر بوضوح المؤثرات الأيديولوجية التي ساهمت في تشكيل نقد الاستشراق عند الشخصيات الواردة في هذه الدراسة، فالأيديولوجية الماركسية واضحة عند أنور عبد الملك، وأيديولوجية حسن حنفي معلنة صراحة منذ البداية. كما أن كليهما لم يفرق بين **الاستشراق كمؤسسة** بالمعنى الاستعماري والسياسي من ناحية، **والاستشراق بمعناه الأكاديمي** كميدان من ميادين العلم الهادفة إلى دراسة الشرق دراسة علمية قد تصيب وقد تخطئ.

٤) **جدل الصور المرئية:** لو حاولنا إعادة قراءة الموضوع في إطار نظرية "**فلسفة المرآة**" فستكون الأفكار والمصطلحات والتصورات أمام مجموعة من المرايا مما سيؤدي إلى مجموعة من الصور، الصادقة والمخادعة في ذات الوقت.

- **الصورة الأولى:** طبقا لتصور أنور عبد الملك وحسن حنفي فالاستشراق يقدم الشرق بالصورة الذهنية المتوهمة في الذات الغربية (بصرف النظر عن صحة موقفهما من عدمه) والتي تهدف إلى الهيمنة الغربية على الشرق، وبالتالي سيكون الناظر هو الغرب والمنظور إليه هو الشرق.
- **الصورة الثانية:** إعادة النظر في **المرآة المعكوسة للصورة الأولى**، من طرف أنور عبد الملك وحسن حنفي أو استخدام **ذات المرآة** من طرف عكسي مغاير لإعادة النظر من طرف الشرق إلى الغرب– وهو يرى الشرق– من خلال نقد الاستشراق، وبذلك نكون أمام صورة الاستشراق المعكوس القائمة على ميتافزيقا الاستشراق.
- **الصورة الثالثة:** صورة صادقة عبرت عن الاستشراق كمؤسسة بالمعني الاستعماري والسياسي الهادف إلى الهيمنة على الشرق من إخضاعه والسيطرة عليه.
- **الصورة الرابعة:** صورة مخادعة، فكما أن المرآة تكون صادقة فإنها أيضا تكون كاذبة، وهذا ما عبر عنه محمود رجب بـ

"**العينية والغيرية**"، فالاستشراق العلمي الذي أفاد الحضارة العربية في مختلف علومها (بتحقيقه المخطوطات/ قواميسه اللغوية والعلمية/ دورياته العلمية/ إسهاماته البحثية/...إلخ) لم يكن عند أنور عبد الملك أو حسن حنفي ناظرًا أو منظورًا إليه، فبالتالي جاءت صورته غائبة بالرغم من حضور صورته المركزي في الغرب الآن، لتكون بذلك الصورة الرابعة صورة غائبة ومخادعة ومغايرة للصورة الثالثة من طرف الناظر.

- **الصورة الخامسة:** وهي صورة جدلية من خلال التفاعل الديناميكي بين الصور السابقة، فلو افترضنا جدلا بأن الهدف الوحيد للاستشراق هو الهيمنة والسيطرة على الشرق وإخضاعه لمصالح الغرب السياسية والاقتصادية (وتلك الصورة واردة بوضوح عند أنور عبد الملك وحسن حنفي) فهل يعقل أن يقدم الغرب لنفسه صورة زائفة عن الشرق!!! صورة متوهمة!!! صورة لا تراعى الخصوصية الثقافية!!! صورة تعتمد على دراسة الحضارة العربية الإسلامية من منطلقات وثوابت ومعطيات الحضارة الغربية!!! هل سيساعد ذلك في إخضاع الهيمنة والسيطرة من طرف الغرب على الشرق!!! نحن لا ننفي أن ذلك قد حدث في الاستشراق في بعض مراحله الأولى نتيجة عدم التعمق في

دراسة الشرق خاصة في الأجيال الأولى من المستشرقين، إلا أن النقد الذاتي للحركة الاستشراقية قد صحح هذا المسار ليقوم بدراسة الحضارة العربية الإسلامية من الداخل قدر الإمكان، محاولاً فهمها من خلال بنيتها الفكرية الذاتية، ولو أرادنا أن نقيم مدى نجاح الاستشراق في هذا الأمر من عدمه، فلن يكون من المنطقي إطلاق حكم عام يشمل الكل عبر التاريخ، لأن كل مستشرق بل كل دراسة قدمها مستشرق تعتبر حالة خاصة يمكن للباحثين من العالم شرقًا وغربًا الاستفادة من نتائجها الإيجابية ونقد سلبياتها وأوجه قصورها، دون إطلاق الأحكام العامة التي لا تتفق مع قواعد علم المنطق.

- **الصورة السادسة:** وهي صورة يقدمها الباحث- ربما تكون الصورة الأولىّ بالمناقشة- صورة ربما ترتبط بإشكالية قد تكون مفيدة حقا للحضارة العربية عامة والفكر العربي المعاصر خاصة، قد تتمثل في التساؤل التالي: كيف استطاعت أوروبا أن تنتج نمطًا (صورة) من أنماط (صور) الاستشراق لا تختلط فيه الأطماع التوسعية بالاعتبارات العلمية؟ ويعني ذلك بوجود صور استشراقية لا ترتبط بالهيمنة والسيطرة أو حتى بدون مضمون سياسي (والأمثلة كثيرة: كالاستشراق الألماني، والسويسري، والتشيكوسلوفاكي،

والمجري، والبولندي، والفلندي، السويدي...إلخ). وصور بهذا النمط تلقى بالمزيد من الشكوك والريبة على بعض الدراسات العربية التي نقدت الاستشراق دون حتى الحديث عن هذا الأمر، وذلك لأنه سيحق لنا النظر إلى هذه الدراسات العربية على اعتبارها قامت بانتقاء العينة التي تخدم توجهاتها الأيديولوجية المستنتجة مسبقًا، فليس مطلوب من العينات المختارة إلا أن تثبت استنتاجات وضعت سلفًا.

- **الصورة السابعة:** ربما كانت هذه الصورة هي الغائبة عن نقد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر، ويمكن أن نرمز إلى معنى هذه الصورة بما يسمى بـ "**الاندماج الثقافي**" الذي يعبر عن مدى الاندماج بين الناظر والمنظور إليه، ومدى أثر ذلك على الصورة المنتجة من طرف الاستشراق. بمعنى: المستشرق باحث ينتمي إلى ثقافة وحضارة مغايرة، ربما قضى هذا المستشرق حياته كاملة في دراسة الحضارة العربية الإسلامية، بل فرع أو تخصص واحد منها، وأحيانا موضوع واحد في تخصص، وقوائم ببلوجرافيا الدراسات الاستشراقية وموسوعات أعلام المستشرقين تقدم أمثلة عديدة تثبت ذلك، علاوة على أن اللغة العربية ليست لغته الأم، مما يعني إنفاق سنوات من العمر مسبقا في دراسة اللغة العربية (المعروف مدى صعوبتها) قبل تخصيص سنوات

عديدة لدراسة موضوعات متخصصة، وبالتالي اعتقد أنه سيكون من المنطقي والمفيد أن تكون القضية المطروحة للتساؤل والنقاش: إلى أي مدى أدى التخصص الدقيق إلى "**الاندماج الثقافي**"، وإلى أي مدى قد يؤدي هذا الاندماج الثقافي إلى عملية "**حوار حقيقي بناء ومفيد بين الثقافات والحضارات**"؟ **وكيف يمكن أن تكون كل حضارة مرآة للحضارات الأخرى؟** ربما تكون هذه الإشكالية حلقة مفقودة في نقد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر، بالطبع دون إنكار السنة الكونية في الاختلاف بين الشعوب والثقافات والحضارات.

٥) في النهاية نعتقد بأنه ليس من الصواب تقديم حكم مطلق وبات على الاستشراق لاحتوائه على مراحل تاريخية متعددة، واتجاهات متضاربة (منها السياسي ومنها الأكاديمي)، فمدارسه ومناهجه كثيرة ومختلفة، وبالتالي نعتقد بأن الحكم المطلق سواء كان سلبيًا أو إيجابيًا سيخضع لعدة انتقادات واستثناءات.

هوامش الدراسة:

(١) لو حاولنا البحث عن التعريف الاصطلاحي لمفهوم "**الاستشراق**" في الكتابات العربية فسنجد عدة تعريفات من أهمها: تشتق كلمة "**الاستشراق**" من شرق، يقال شرقت الشمس مشرقًا وشروقًا إذا طلعت (**المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مادة [ش ر ق]، ج١، ص٤٨٢).. ويذهب د. أحمد سمايلوفتش إلى تعريف الاستشراق قائلاً: "كلمة الاستشراق ذات دلالتين: الأولى أنه علم يختص بفقه اللغة ومتعلقاتها على وجه الخصوص، والثانية: أنه علم الشرق أو علم العالم الشرقي على وجه العموم، وعلى هذا الأساس يشمل كل ما يتعلق بمعارف الشرق من لغة وآداب وتاريخ وآثار وفن وفلسفة وأديان وغيرها من علوم وفنون".. لمزيد من التفاصيل راجع: أحمد سمايلوفتش، **فلسفة الاستشراق وأثرها على الأدب العربي المعاصر**، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٢٦ وما بعدها. ويذهب د. عبد الحميد مدكور إلى تعريف الاستشراق قائلاً: "الاستشراق هو البحث الأكاديمي الذي يكتبه غربيون غير مسلمين عن الشرق الإسلامي، والمستشرق باحث غربي غير مسلم يكتب عن الشرق الإسلامي"... راجع: عبد الحميد مدكور، **نظريات في حركة الاستشراق**، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٥. في حين ذهب د. عاطف العراقي إلى تعريف الاستشراق قائلاً: "دراسة الغربيين لتاريخ الشرق، أممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، فهو حركة علمية عنيت ولا تزال تعنى بدراسة الحضارة الشرقية من قبل باحثين ينتمون إلى حضارة أخرى..." راجع: عاطف العراقي، **دفاع عن الاستشراق**، مقالة بجريدة الأهرام المصرية، ٢٠٠١/٣/١٨م.

(٢) نظرًا لاتساع الفترة الزمنية لمفهوم الفكر العربي المعاصر فإن هذه الدراسة ستقتصر على النصف الثاني من القرن العشرين فما تلاه مع إمكانية الإشارة إلى أي مؤثرات سابقة قد ترتبط بأي عنصر من عناصر الدراسة.

(٣) لم تكن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت مجرد حملة عسكرية فقط، بل ضمت جيشًا آخر من العلماء والباحثين الذين جاءوا لدراسة أدق تفاصيل الحياة المصرية، وسجلوا بمنهج علمي كافة تحليلاتهم ومشاهدتهم، وانتهى بهم المطاف إلى إخراج كتاب "**وصف مصر**"، لمزيد من التفاصيل راجع:

ماجد مصطفى الصعيدي، **قضية الاستشراق في العقل العربي**، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ٢٠١٦م، ص٣-٤.

فاطمة حمدي، **الاستشراق: الوعي- المعرفة**، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ٢٠١٦م، ص٣.

(٤) وردت مقالة: "**الاستشراق في أزمة**" ضمن كتاب: أنور عبد الملك، **الجدلية الاجتماعية**، ترجمة: سامية الجندي وعبد العظيم حماد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٤١٥- ٤٦١.

(٥) إدوارد سعيد، **الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص٤٥-٤٦.

(٦) وردت مقالة **الاستشراق والاستشراق معكوسًا** ضمن كتاب: صادق جلال العظم، **ذهنية التحريم سلمان رشدي وحقيقة الأدب**، دار المدى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م، ص ١٣- ٦٢.

(٧) لدراسة موقف حسن حنفي من نقد الاستشراق وتحليله سيتم الاكتفاء فقط بالأعمال التالية:

- حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، القاهرة، الدار الفنية، ١٩٩١م.
- حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن: التراث والعصر والحداثة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٧م، ص ٥٤٥- ٥٥٥.

- حسن حنفي، **شخصيات وقضايا**، بدون دار نشر، القاهرة، مصر، ٢٠١٨م، ص٥٤٧- ٥٥٠.

(٨) هذا المصطلح "**توظيف الجهاز المفاهيمي**" نقلا عن محمد صفار، ولا يفوت الباحث أن يعترف بأنه هو من نبهني إلى أهمية تبني الإجراءات المنهجية الواردة في كتاب محمود رجب "**فلسفة المرآة**"، كما أن الباحث قد استفاد كثيرًا من قيامه بتطبيق ذات الإجراءات المنهجية في ورقته البحثية المعنونة بـ:

محمد صفار، **الوعي الحضاري فى الفكر العربي المعاصر: قراءة فى كتاب "أوروبا والإسلام" هشام جعيط**، مجلة أوراق فلسفية، القاهرة، مصر، العدد (٤٢)، لعام ٢٠١٥م، ص ٢٧- ٩٨.

(٩) لمزيد من التفاصيل راجع: محمود رجب، **فلسفة المرآة**، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

(١٠) لا تهدف هذه الدراسة على الإطلاق إلى: نفي وجود ما يمكن تسميته بـ "**الاستشراق السياسي**" أو حتى الدفاع عنه، فآثاره السياسية السلبية وأجندته الهادفة إلى الهيمنة بل والتحكم في الشرق معروفة، وقد لاحظ الباحث أثناء وجوده في منطقة وسط أوروبا عدة مرات بداية من عام ٢٠١٠م وحتى وقت كتابة هذه الدراسة أن أنصار الاستشراق السياسي شريحة ضئيلة جدا لا تمثل إلا قلة من أهل الاستشراق، إلا أننا لاحظنا أيضا ومع الأسف الشديد أن وسائل الإعلام الغربية قد ركزت أكثر على إبراز وإظهار أعمال هؤلاء في وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة- حتى اعتقد البعض أنهم الكل- في حين اقتصر ظهور نتائج "**الاستشراق الأكاديمي**" على المتخصصين فقط، ولم يأخذ العرض الذي يستحقه في وسائل الإعلام إلا ما ندر. ولا يصعب على الدارسين العرب التمييز بين الاستشراق السياسي من ناحية، والاستشراق العلمي الأكاديمي من ناحية أخرى، وفي ذلك يقول د. محمود حمدي زقزوق: "وإذا كان للاستشراق عناصر إيجابية، وعناصر

سلبية، فليس من الصعب التمييز بينها، فالعناصر الإيجابية تتمثل في العناية بالمخطوطات العربية وفهرستها، وتحقيق العديد من أمهات الكتب العربية، والدراسات اللغوية والموسوعات والمعاجم وغيرها..." لمزيد من التفاصيل راجع: محمود حمدي زقزوق، **الإسلام في مرآة الفكر الغربي**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤م، ص١٧.

(١١) محمد صفار، **الوعي الحضاري فى الفكر العربي المعاصر**، ص٣١- ٣٢ (بتصرف).

(١٢) تأرجحت الكتب العربية التي تناولت الاستشراق والمستشرقين بين موقفين مناقضين: فبعض هذه الكتب تحاملت على المستشرقين تحاملاً شديدًا، واعتبرتهم رسلا للاستعمار وصورًا للغزو الاستعماري الفكري الحضاري، كما اعتبرت المستشرقين جميعًا أعداء للإسلام والحضارة العربية، ثم نجد كتبًا أخرى تحمست للاستشراق وغالت في مدح المستشرقين ووضعتهم فوق قمة الفكر العربي وجعلتهم مبعوثي العناية الإلهية للاهتمام بتراثنا العربي الإسلامي.... لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة راجع الدراسة الجادة والمميزة في هذا الصدد:

د. إبراهيم صقر، الاستشراق والفلسفة الإسلامية بين التجديد والتبديد، المكتبة المصرية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص١ وما بعدها.

(١٣) بمجرد نشر هذه المقالة عام ١٩٦٣م باللغة الفرنسية بدأ الجدل والنقاش حولها، وربما كان ذلك مع المستشرق الإيطالي فرانشسكو غابريلي Francesco Gabrieli (ت: ١٩٩٦م) وهو من كبار المستشرقين في إيطاليا، وقد ذهب فرانشسكو غابريلي إلى الرد على مقالة أنور عبد الملك ونقدها بمقالة له بعنوان: "**ثناء على الاستشراق**" وفيها قال: "لا أستطيع أن أنكر أن بعض المستشرقين كانوا عملاء للاستعمار مثل بعض القناصلة والسفراء والتجار والمبشرين والعسكريين، ولكن علينا أن ننتبه إلى أن أغلب المستشرقين حملوا معهم اهتمامات علمية، ورغبة جامحة في البحث عن الحقيقة التاريخية والمعرفية

بعيدًا تمامًا عن غايات بلدانهم السياسية، وأن عددًا من مستشرقي القرن العشرين قد ناضلوا للدفاع عن الشرق وحضارته...." لمزيد من التفاصيل راجع: مشاري بن عبد الله النعيم، مقالة بعنوان "**الاستشراق والإرهاب**"، جريدة الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد ١٥٥٤٥، بتاريخ ٢٠١١/١/١٥م.

(١٤) ينظر أنور عبد الملك إلى مفهوم الخصوصية (specificity) باعتبارها: أداة تستطيع في مجال الرؤية والفكر وفى مجال السياسة أن تأخذ في الحسبان الاستمرار والتطور في كل المجتمعات المعنية (societal maintenance)، وأن تفعل ذلك من خلال العوامل المشتركة التي يمكن التحقق منها والمتعلقة بالمجتمعات القومية، وتعمل [الخصوصية] بدرجات وأشكال مختلفة عبر إطار الوجود التاريخي/ الجغرافي الذي وجد، ويوجد، بداخل أي مجتمع من المجتمعات، وبذلك سيشكل مفهوم "**الخصوصية**" إعادة الروح إلى مفهوم "**الأصالة**" من أجل حل معضلة العلاقة بين "**الأصالة والمعاصرة**" لضمان إعادة مفهوم "**الأصالة**" إلى استمراره الإبداعي عبر التاريخ مما سيؤدي إلى تحول المجتمعات بالعناصر الأكثر ابتكاراً، لأنها "**أصيلة**" و"**ذاتية**"، وتصنع هذه الأصالة المستقبل من خلال قالب معين لخصوصية كل مجتمع. ويوجز أنور عبد الملك العلاقة بين الأصالة والخصوصية بقوله إن "تطبيق تصور الخصوصية يسمح بتحديث الأصالة الذاتية للمجتمعات المختلفة". لمزيد من التفاصيل راجع:

- أنور عبد الملك، **من أجل إستراتيجية حضارية**، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ص١٥٠-١٥١، وص١٨٩- ١٩٠.

ولمزيد من التفاصيل بخصوص مفهوم الخصوصية عند أنور عبد الملك راجع دراسة:

- علياء وجدي، **مفهوم الخصوصية عند أنور عبد الملك** ضمن كتاب: "**الخصوصية الثقافية: نحو تفعيل التغير السياسى والاجتماعى**"، تحرير: نادية

محمود ومحمد صفار، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٢٢٣– ٢٤٥.

(١٥) يعد مفهوم "**العامل الحضاري**" من المفاهيم المركزية عند أنور عبد الملك، فمن خلاله يتم تفسير كافة الظواهر الحضارية، لأنه بمثابة القلب في الجسد، ومن خلاله أيضا يمكن "فهم أمور الدنيا والإسهام في مواكبتها وتغييرها"... لمزيد من التفاصيل راجع:

- أنور عبد الملك، **فى أصول المسألة الحضارية**، دار الهلال، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥م، العدد (٦٥١)، ص٤ وما بعدها.

(١٦) لمزيد من التفاصيل حول "**مفهوم السلطة**" عند أنور عبد الملك راجع كتابه المعنون بـ: **ريح الشرق**، دار المستقبل العربي للنشر، القاهرة، مصر، ١٩٨٣م.

(١٧) هناك مثال واضح– ليس وحيدًا– لمن قاموا بدراسة الإسلام من الداخل (ضمن عمل مؤسسي شهد تطورًا ملحوظًا خلال النصف الثاني من القرن الماضي) بهدف فهمه أكثر من أجل الدخول في عملية حوارية حقيقية مع العالم الإسلامي، وهذا المثال ممثل في الآباء الثلاثة الذين أسسوا معهد الآباء الدومينكان بالقاهرة، ففي عام ١٩٣٧م شرع هؤلاء الثلاثة في تلبية دعوة الفاتيكان لأتباعه بأخذ الإسلام على محمل الجدّ من أجل فهم أفضل للإسلام وتقدير أبعاده الدينية والروحية، فشرع الأب جورج شحاته قنواتي (ت: ١٩٩٤م)، والأب جاك جومييه Jacques Jomier (ت: ٢٠٠٨م)، والأب سرج دي بوركي Serge de Laugier de Beaurecueil (ت: ٢٠٠٥م) في دراسة الإسلام من الداخل، مع وضع خطة تهدف إلى استمرار دراسة الإسلام وثقافته مع الأجيال التالية لهم، ونتج عن هذه المحاولة مئات من الدراسات الجادة والمهمة للثقافة العربية، علاوة على تأسيس مكتبة من أكبر المكتبات المتخصصة في الإسلاميات والحضارة العربية في العالم، لمزيد من التفاصيل حول هذا المعهد وأنشطته البحثية ومكتبته راجع موقعه الرسمي على الرابط التالي (تاريخ الدخول: ٢٠١٩/١٢/١م):

www.ideo-cairo.org

وتأتي أهمية هذا المثال في عدة أمور منها، **الأول:** أن ذلك حدث في فترة شباب المفكر المصري أنور عبد الملك. **والثاني:** أن الشخصيات الواردة في هذا المثال كتبت أغلب أعمالها باللغة الفرنسية (فمجمل الأعمال البحثية لهؤلاء الآباء الثلاثة تجاوزت مائتين وخمسين عملاً بحثيًا بين كتب وبحوث ومقالات) ولنا أن نتذكر أن أنور عبد الملك قد قام بكتابة مقالته عن الاستشراق باللغة الفرنسية. **والثالث:** أنهم ينتمون للديانة المسيحية وهي نفس ديانة المفكر المصري أنور عبد الملك. **والرابع:** أنهم قدموا نموذج للاستشراق يختلف شكلاً ومضمونًا عن النموذج الذي يطرحه أنور عبد الملك، ويصعب جدا القول بأن أنور عبد الملك لم يطلع أو لم يعرف أعمالهم البحثية. وبالتالي فإن هذا المثال يثبت وجود أنماط إستشراقية تتعارض مع صميم النمط الاستشراقي الذي يقدمه أنور عبد الملك...

(١٨) لفت هذا الأمر انتباه الباحث السوري حامد إبراهيم، فذهب إلى القول: "عمل أنور عبد الملك في نقد الاستشراق سيبقى منهجيًا فقط دونما عمل مكثف لدراسة مكونات الثقافة العربية الإسلامية"... راجع: د. حامد إبراهيم، مقالة بعنوان: "**موقف المثقف العربي من الاستشراق**"، مجلة المعرفة، الصادرة عن وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية، العدد رقم ٥٠٩، الصادر بتاريخ شهر فبراير ٢٠٠٦م، ص١٣٨.

(١٩) مصطلح "**الذات**" من المصطلحات المركزية في فكر وكتابات أنور عبد الملك، وتمتلك هذه الذات القدرة على التقييم والنقد في ضوء امتلاك قدرتها السياسية على ما أسماه هو بـ "**السيادة**"، ويرتبط المصطلح الأخير بالتحرر والقرار السياسي المستقل، فبعد أن كانت الذات المستعمرة على حسب تعبيرات أنور عبد الملك "**موضوع- الدراسة**"، تحولت هذه الذات إلى صاحبة السيادة في تلك الدراسة. للمزيد من التفاصيل راجع:

- أنور عبد الملك، **الجدلية الاجتماعية**، ص٤١٥.

ويمكن نقد أنور عبد الملك في هذا الإطار، حيث إن خروج بعض البلدان عن قبضة الاستعمار لا يعني بالضرورة امتلاكها الآليات المنهجية والأنساق المعرفية في إعادة النظر إلى الاستشراق، إلا إذا كان تقييم الاستشراق من منظور سياسي بحت في المرحلة التالية لما بعد الاستعمار مباشرة، بصرف النظر عن الإسهامات العلمية البحتة التي قدمتها الحركة الاستشراقية. ونعني بذلك أنه من أجل تقييم علمي جاد للدراسات الاستشراقية العلمية، فإن هذا الأمر يتطلب بنية معرفية قوية بموضوع تلك الدراسات من ناحية، وأدوات ومناهج تلك الدراسات، والنتائج التي توصلت إليها من ناحية أخرى، وكل هذه الأمور تحتاج إلى بنية معرفية وعلمية بصرف النظر عن الاستقلال السياسي.

(٢٠) أنور عبد الملك، مقالة: **الاستشراق في أزمة**، ص٤١٥.

(٢١) لمزيد من التفاصيل راجع: أنور عبد الملك، **الاستشراق في أزمة**، ص٤٢٠.

(٢٢) أنور عبد الملك، **الاستشراق في أزمة**، ٤١٥.

(٢٣) أنور عبد الملك، **الاستشراق في أزمة**، ص٤٢٠- ٤٢١.

(٢٤) لمزيد من التفاصيل راجع: أنور عبد الملك، **الاستشراق في أزمة**، ص٤٢١- ٤٢٢ (بتصرف).

(٢٥) لمزيد من التفاصيل راجع: أنور عبد الملك، **الاستشراق في أزمة**، ص٤٢٥-٤٣٠.

(٢٦) أنور عبد الملك، **الاستشراق في أزمة**، ص٤٣١.

(٢٧) أنور عبد الملك، **الاستشراق في أزمة**، ص٤٣٣. يتفق كاتب هذا البحث مع بعض (وليس كل) ما ذهب إليه أنور عبد الملك في هذا النقطة على وجه التحديد، حيث إنني أصبت بالدهشة أكثر من مرة، حينما التقيت بباحثين أوروبيين في عدة بلدان أوروبية، لديهم كتب أو مقالات يدعون أنها بحثية عن أحد الموضوعات الرئيسية في الثقافة العربية، وخاصة في الجوانب السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية منها، ويدعون أنهم رجعوا إلى المصادر والمراجع العربية الأصلية، وإذا بك تندهش حينما تلتقي بهم،

لتكتشف أنهم لا يعرفون أبسط الكلمات والعبارات باللغة العربية، فكيف بباحث لا يعرف اللغة العربية أن يدعي أنه قد أطلع ودرس وحلل وناقش أدق التفاصيل الواردة في أمهات الكتب التراثية!!!

ويستنتج من ذلك أن المرجعية لمثل هذه الدراسات والكتب والبحوث استندت بالفعل إلى الدراسات الأوروبية التي كتبت مسبقا عن الموضوعات ذاتها بلغات غربية، وبذلك ستكون هذه الدراسات المحدثة ليست إلا صدى لصوت الدراسات الغربية القديمة دون أدنى نقد ذاتي لها أو تطوير... والحق أنني وجدت في عدة بلدان مثل: سلوفاكيا- التشيك- المجر- النمسا- انتقادات حادة لهذه النوعية من الكُتاب "الذين يكتبون عن الشرق ولا يعرفون اللغة العربية"، كما أن الدارسين الجادين للشرق (لغة وثقافة) يرفضون فكرة اعتبار ووصف هذه الفئة- التي لا تتحدث اللغة العربية- على أنهم مستشرقين.

(٢٨) شكل مؤتمر المستشرقين في موسكو ٩-١٦ أغسطس ١٩٦٠م أهمية خاصة، فقد جمع هذا المؤتمر بين مجموعة من المستشرقين الغربيين الذين وجهت لهم الدعوة، علاوة على باحثين من الشرق، والدارسين والباحثين الروس، وقد كان التوظيف السياسي من طرف الاتحاد السوفيتي هو السمة البارزة في هذا المؤتمر، كما أن عددًا من المستشرقين الأوروبيين يرون كيف يعد هذا المؤتمر بحق محاولة لرصد أثر سياسة الحرب الباردة على المستشرقين الروس، فالخطاب السياسي في البحوث المقدمة من المستشرقين الروس كان هو السائد في ذلك المؤتمر، كما أن أثر دعم الاتحاد السوفيتي لكافة حركات التحرر المعادية لأوروبا الغربية كانت إحدى السمات الرئيسة البارزة في أغلب الأوراق المقدمة من المستشرقين الروس، لمزيد من التفاصيل راجع:

Michael Kemper and Artemy M. Kalinovsky, **Propaganda for the East, scholarship for the West: Soviet strategies at the 1960 International Congress of Orientalists in Moscow**, Routledge, London, 2015, p170-210.

ولمزيد من التفاصيل بخصوص الدراسات الاستشراقية في الاتحاد السوفيتي في مرحلة الحرب الباردة راجع:

Leslie James and Elisabeth Leake, **Decolonization and the Cold War: Negotiating Independence (New Approaches to International History)**, Bloomsbury Academic, New York, USA, 2015, P.155-162.

(٢٩) أنور عبد الملك، **الاستشراق في أزمة**، ص٤٣٦.

(٣٠) هذا خطاب الأكاديمي الروسي ب. ج. جانورث، مدير معهد موسكو للدراسات الشرقية في خطابه الختامي لمؤتمر الاستشراق الذي عقد في موسكو في الفترة من ٩ إلى ١٦ أغسطس عام ١٩٦٠م، وحضره أنستاس ميكويان، النائب الأول لرئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي السابق. وقد اقتبس أنور عبد الملك خطاب جانورث، وتبنى أفكاره، ودافع عنها، وقدمها على أنها تؤسس للاستشراق الفعال الذي يؤسس لأعمال التحرير والبناء القومي، كما أنه– الاستشراق الشيوعي– يشارك مع الذات على إعادة التكوين والتقدم.... لمزيد من التفاصيل بخصوص خطاب أنستاس ميكويان، نقلا عن أنور عبد الملك راجع:

A. Mikoyan, **Speech to the 25th congress of Orientalists problem vostokvedenca**, No 5, 1960, p3-6.

ولمزيد من التفاصيل بخصوص الأوراق المقدمة إلى هذا المؤتمر راجع:

https://www.jstor.org/stable/763311

(٣١) في حوار شخصي لكاتب هذا البحث مع المستشرق التشيكي الشهير بروفسير لوباش كورباتشيك Lubos Kropacek، أحد أبرز المستشرقين في الجمهورية التشيكية، عاصر فترة التحكم السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا (قبل انقسامها إلى الجمهورية التشيكية دولة مستقلة، والجمهورية السلوفاكية دولة مستقلة أخرى) حدثني بتاريخ ٢٠١٠/٥/٣٠م بمكتبه بجامعة تشارلز بالعاصمة التشيكية براغ عن مدى تدخل الاتحاد السوفيتي في أي دراسة

كان يقوم بها أي مستشرق تشيكي في تلك الفترة، فلا تنشر أي دراسة إلا بعد مراجعتها من طرف الرقابة السوفيتية، بل والأغرب من ذلك على حد تعبيره أنه لم يكن يسمح لهم بشراء الكتب من خارج مناطق نفوذ الاتحاد السوفيتي، ولو كان هناك ضرورة ملحة لشراء أي كتاب من خارج هذه المنطقة، فيجب أن يمر الكتاب– أي كتاب– على الرقابة السياسية قبل وصوله ليد الباحثين....

كما وجدت شهادات مشابهة من عدة مستشرقين عاصروا سيطرة الاتحاد السوفيتي على الجمهورية السلوفاكية، وكيف كان يؤدي هذا التدخل في عملية توجيههم لإجراء بحوث معينة دون غيرها، لإثبات نتائج وضعت مقدما من طرف الخارجية والثقافة السوفيتية.

ولو تناقشت مع أي مستشرق مجري عاصر فترة الحكم الشيوعي للمجر، فسيزيد أكثر من ذلك بكثير نظرًا لأن المدرسة المجرية الاستشراقية كانت الأكثر تطورًا في أوروبا الشرقية والوسطى وقتها، لذلك كانت التدخلات السوفيتية فيها هي الأسوأ على الإطلاق.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل راجع: حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص٩ وما بعدها.

(٣٣) شكلت هذه المصطلحات الإطار النظري الأساسي في مشروع حسن حنفي من نقد الاستشراق، لمزيد من التفاصيل راجع:

- حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص٢٤ وما بعدها.
- حسن حنفي، **شخصيات وقضايا**، ص٥٤٧– ٥٥٠.

(٣٤) حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن "التراث والعصر والحداثة"**، ص٥٤٥ بتصرف.

(٣٥) حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن "التراث والعصر والحداثة"**، ص٥٤٥ بتصرف.

(٣٦) حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن "التراث والعصر والحداثة"**، ص٥٤٦.

(٣٧) لا يتحمل الباحث مسئولية الحدة الأسلوبية لدى د. عاطف العراقي، ونتحفظ على استخدامه لكلمة "**مسعورة**"، لكننا وجدنا أنه من المفيد عرض الصورة المغايرة لديه، لمزيد من التفاصيل حول موقفه من الاستشراق راجع:

عاطف العراقي، **العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر "قضايا ومذاهب وشخصيات"**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، الطبعة الرابعة، ٢٠١٢م، ص١٠٧ وما بعدها.

وعلى الرغم من دفاع عاطف العراقي عن الاستشراق، إلا أنه انتقد أيضا بعض المستشرقين الذين لا يتحروا الدقة الموضوعية، أمثال: أرنست رينان خاصة في كتابه "ابن رشد والرشدية"، وليون جوتييه خاصة في كتابه "مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية"، وأوضح أن أفكار هؤلاء تعد تعبيرًا عن التعصب الهادف إلى التقليل من شأن عقلية العرب، كما أن أفكارهم أيضا تعد نوعًا من التعصب الديني.. لمزيد من التفاصيل راجع:

عاطف العراقي، **ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة "القسم الأول: القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقدية"**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٠م، ص٣١٢ وما بعدها.

(٣٨) لمزيد من التفاصيل بخصوص هذه الفكرة الواضحة والمتميزة عند الدكتور حسن حنفي، راجع: **هموم الفكر والوطن "التراث والعصر والحداثة"**، ص٥٤٦.

(٣٩) حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن "التراث والعصر والحداثة"**، ص٥٤٦.

(٤٠) حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن "التراث والعصر والحداثة"**، ص٥٤٦.

(٤١) محمود رجب، **فلسفة المرآة**، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص١١٧.

(٤٢) محمود رجب، **فلسفة المرآة**، ص١٢٦ (بتصرف).

(٤٣) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص٣١.

(٤٤) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص١٩ (بتصرف).

(٤٥) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص٢١.

(٤٦) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص٢٩-٣٠.

(٤٧) ورد هذا المصطلح **(اغتراب)** عند حسن حنفي بهذا المعنى عدة مرات في كتابه علم الاستغراب، راجع ص: ٢٥، ٣١، ٤٣، ٤٥، ٤٨.

(٤٨) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص٣٤.

(٤٩) يقصد بمصطلح "**ميتافزيقا الاستشراق:** تفسير الفوارق بين ثقافة وأخرى بين شعب وآخر بردها إلى طبائع ثابتة وليس إلى صيرورات تاريخية متبدلة، فعلى سبيل المثال: ترى ميتافزيقا الاستشراق ضمنًا **(**وأحيانا صراحة**)** أن الخصائص التي تميز المجتمعات الغربية ولغاتها وثقافتها، هي على ما هي عليه، في التحليل الأخير، لأنها تنساب من طبيعة غربية معينة متفوقة في جوهرها على باقي الطبائع وبخاصة على الطبيعة الشرقية"... لمزيد من التفاصيل راجع: صادق جلال العظم، **ذهنية التحريم**، ص١٥.

قائمة المراجع

أولاً- المصادر والمراجع العربية:

١) إبراهيم صقر، **الاستشراق والفلسفة الإسلامية بين التجديد والتبديد**، المكتبة المصرية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٢) أحمد سمايلوفتش، **فلسفة الاستشراق وأثرها على الأدب العربي المعاصر**، القاهرة، ١٩٨٠م.

٣) إدوارد سعيد، **الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٤) أنور عبد الملك، **الجدلية الاجتماعية**، ترجمة: سامية الجندي وعبد العظيم حماد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٥) أنور عبد الملك، **ريح الشرق**، دار المستقبل العربي للنشر، القاهرة، مصر، ١٩٨٣م.

٦) أنور عبد الملك، **فى أصول المسألة الحضارية**، دار الهلال، القاهرة، مصر، العدد (٦٥١)، ٢٠٠٥م.

٧) أنور عبد الملك، **من أجل إستراتيجية حضارية**، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر.

٨) حامد إبراهيم، مقالة بعنوان: "**موقف المثقف العربي من الاستشراق**"، مجلة المعرفة، الصادرة عن وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية، العدد رقم ٥٠٩، الصادر بتاريخ شهر فبراير ٢٠٠٦م.

٩) حسن حنفي، **شخصيات وقضايا**، بدون دار نشر، القاهرة، مصر، ٢٠١٨م، ص٥٤٧- ٥٥٠.

١٠) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، القاهرة، الدار الفنية، ١٩٩١م.

١١) حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن: التراث والعصر والحداثة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٧م، ص ص ٥٤٥- ٥٥٥.

١٢) صادق جلال العظم، **ذهنية التحريم سلمان رشدي وحقيقة الأدب**، دار المدى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م.

١٣) عاطف العراقي، **العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر "قضايا ومذاهب وشخصيات"**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، الطبعة الرابعة، ٢٠١٢م.

١٤) عاطف العراقي، **ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة "القسم الأول: القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقدية"**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٠م.

١٥) عاطف العراقي، **دفاع عن الاستشراق**، مقالة بجريدة الأهرام المصرية، ٢٠٠١/٣/١٨م.

١٦) عبد الحميد مدكور، **نظريات في حركة الاستشراق**، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٧) علياء وجدي، **مفهوم الخصوصية عند أنور عبد الملك** ضمن كتاب: "الخصوصية الثقافية: نحو تفعيل التغير السياسى والاجتماعى"، تحرير: نادية محمود ومحمد صفار، مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، القاهرة، ٢٠٠٨م.

١٨) فاطمة حمدي، **الاستشراق: الوعي- المعرفة**، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ٢٠١٦م.

١٩) ماجد مصطفى الصعيدي، **قضية الاستشراق في العقل العربي**، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ٢٠١٦م.

٢٠) محمد صفار، **الوعي الحضاري فى الفكر العربي المعاصر: قراءة فى كتاب "أوروبا والإسلام" هشام جعيط**، مجلة أوراق فلسفية، القاهرة، مصر، العدد (٤٢)، لعام ٢٠١٥م.

٢١) محمود حمدي زقزوق، **الإسلام في مرآة الفكر الغربي**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤م.

٢٢) محمود رجب، **فلسفة المرآة**، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٢٣) مشاري بن عبد الله النعيم، مقالة بعنوان "**الاستشراق والإرهاب**"، جريدة الرياض، المملكة العربية السعودية، العدد ١٥٥٤٥، بتاريخ ٢٠١١/١/١٥م.

ثانيًا- المراجع الأجنبية:

24) Mikoyan Smth, **Speech to the 25th congress of Orientalists problem vostokvedenca**, No 5, 1960, p3-6.

25) Leslie James and Elisabeth Leake, **Decolonization and the Cold War: Negotiating Independence (New Approaches to International History)**, Bloomsbury Academic, New York, USA, 2015, P.155-162.

26) Michael Kemper and Artemy M. Kalinovsky, **Propaganda for the East, scholarship for the West: Soviet strategies at the 1960 International Congress of Orientalists in Moscow**, Routledge, London, 2015, p170-210.

Criticism of Orientalism in contemporary Arab thought Anwar Abdel-Malik and Hassan Hanafi as Models

Dr. Ahmed Hassan Anwar
Lecturer of Islamic Philosophy and Sufism,
Faculty of Arts, Port Said University, Egypt
Visiting Researcher, Faculty of Arts,
Comenius University, Bratislava, Slovakia

Summary

This research aims to address a central issue in contemporary Arab thought, namely that of the criticism of Orientalism. This will be conducted through studying orientalism in Anwar Abdel-Malik and Hassan Hanafi in an attempt to discover the method, ideology and content of the critical discourse of the two thinkers. This study will adopt an approach based on employing the set of philosophical concepts as found in the book "The Philosophy of the Mirror" by the late Egyptian thinker Mahmoud Ragab (d .: 2002 AD) in an attempt to extract the effect of the act of visualization and reflexive contemplation on the subject of the study.

. The study includes the following elements:

-Preface

- Criticism of Orientalism according to Anwar Abdul Malik.

- The central terminology contained in the essay titled “Orientalism in Crisis.”

- The patterns and levels of Orientalism according to Anwar Abdul-Malik.

- From the criticism of Orientalism to occidentalism according in Hassan Hanafi.

- Criticism of Orientalism according to Hassan Hanafi.

- Establishing Occidentalism.

Conclusion.

List of references.

key words:

Orientalism - Criticism of Orientalism - occidentalism - Mirror Philosophy - Hassan Hanafi - Anwar Abdul Malik.